

(٥)

لأهل
التحرير



oboi.kan.com

الإسلام وأيديولوجية الفقراء

مقدمة فى (لاهوت) التحرير الإسلامى

د. محمد مورو

آلة شيطانية ضخمة ، تروسها بشر ، تقتل الأطفال ، تمتص دماء البشر ، تعذب المرأة وتظلمها ، تجتث جذور الثقافات ، تنشر المذابح والتطهير العرقى ، وحروب الإبادة ، والطائفية والعنصرية ، الاستعمار ، النازية ، الفاشية ، العنف ، القهر ، تدمير القيم ، نهب ثروات الشعوب والأفراد بلا رحمة وبلا هوادة ، وفى كل يوم جديد يزداد جشع تلك الآلة الشيطانية حتى إنها بدأت تأكل نفسها وتنفصل حتى عن إطارها الاجتماعى لتصبح هى ذاتها مستقلة عمن صنعوها وخطر عليهم أيضاً .

هذه الآلة الشيطانية هى بالتحديد النتيجة الحتمية للصعود الغربى بدءاً من الكشوف الجغرافية والاستعمار وسباق الإعلام وانتهاء بالبورصات العالمية التى تعمل ٢٤ ساعة فى الـ ٢٤ ساعة والخبراء والحاسبات الضخمة والأقمار الصناعية والبث المباشر ، البنك الدولى والجات وصندوق النقد الدولى ومجلس الأمن وقوات حفظ السلام الدولية ! وأخيراً الشركات العابرة للقوميات التى أصبحت ميزانية واحدة منها أكبر من ميزانية دول ، وهى مجتمعة ميزانياتها أكبر من ميزانية الولايات المتحدة الأمريكية نفسها ، أنه عصر الفوضى واللاتقافة واللاحضارة .

وضحايا هذه الآلة بالملايين ، بل ألوف الملايين ، شعوب كاملة ، أطفال ، نساء ، رجال ، حضارات ، ثقافات ، فقر ، جهل ، مرض ، مدن الصفيح وإنسان بلا جذور ، تخريب بحث للهياكل الاقتصادية والاجتماعية ؛ ليحل محلها كومة ضخمة من الخردة وأناس بلا مستقبل ، بل بلا حاضر أيضاً .

هل نقول : إن هذه الآلة الشيطانية هي المنظومة الحضارية الغربية باعتبار أن تلك المنظومة الحضارية الغربية هي التى أفرزت تلك الآلة الشيطانية .. نعم .. ولكن أيضاً لا ؛ لأن تلك الآلة أصبحت نفسها أكبر من تلك المنظومة واستقلت عنها .

وليس هناك من حل بالطبع سوى تدمير هذه الآلة الشيطانية - الثورة - ثورة المحرومين والفقراء والمهمشين والمقهورين فى كل مكان ، ثورة تضم كل ضحايا هذه الآلة ، الأفارقة ، السود ، الشعوب المطحونة فى آسيا وأمريكا اللاتينية ، ضحايا تلك الآلة داخل الغرب نفسه كالمرأة مثلاً ، المرأة الغربية التى دفعت ثمن الشذوذ والإباحية وتعانى آلاماً مبرحة من مجتمع بلا قيم ولا ضمير .

وعلىنا الآن أن نحدد طبيعة هذه الآلة الشيطانية وكذا جذورها والمنظومة الاجتماعية التى أفرزتها ، وكذلك تطوراتها حتى وصلت إلى حالتها الراهنة البشعة .

وإذا كان من المفيد أن نبدأ بشيء ، فهو المنظومة الاجتماعية والحضارية التى أفرزت تلك الآلة الشيطانية ، وهى المنظومة الحضارية الغربية التى أعطت تلك الآلة سماتها الثابتة والمتغيرة أيضاً ، والحضارة الغربية حضارة تقوم على الوثنية والعنف والقهر ، ولا يمكن فهم هذه الحضارة ولا ميكانيزمات عملها بعيد عن سمات العنف والقهر والوثنية ، الحضارة الغربية هى حضارة إغريقية هيلينية فى جوهرها ، أما المسيحية فلم تكن إلا قشرة خارجية لتلك الحضارة ، ذلك أن المسيحية تحولت إلى دين إغريقى وثنى داخل الغرب ولم يتحول هذا الغرب إلى المسيحية ، وعلىنا أن ندرك فى هذا الصدد أن المسيحية دخلت إلى الغرب عن طريق إمبراطور آمن بها وفهمها على طريقته الإغريقية ثم فرضها على شعبه فرضاً ، ثم تبنت ممالك هذه الديانة وأكرهت الآخرين على اعتناقها وإلا تعرضوا للذبح ، وليس التنصير الوحشى للساكسونيين على يد القديس يونيفاس إلا مجرد نموذج

ينطبق على كل الحالات تقريباً، وهكذا تحولت المسيحية إلى ديانة إغريقية ، وبدلاً من التسامح المسيحي ، أصبح العنف جزءاً أصيلاً من المسيحية الغربية .

وحتى اليوم يتم تنصيب بابا روما وفقاً لقواعد البروتوكول الخاص بتنصيب كهنة المعابد الإغريقية ، أضف إلى هذا أو قل نتيجة لهذا فإن الكاثوليكية لعبت دوراً هاماً في عملية الاستعمار الغربي للعالم ، وكانت دائماً طليعة للاستعمار وباركت دائماً أو شاركت في عملية قهر ونهب الشعوب الأخرى على يد الغرب في المرحلة الاستعمارية حتى أن الاستعمار في رموز كان عبارة عن عسكريين وتجار ومبشرين !

والبروتستانتية ، لم تكن إلا تطوراً في المسيحية الإغريقية واكب مرحلة أخرى من مراحل تطور آلة العنف والقهر الغربي ولم تكن إصلاحاً دينياً بل كانت وصفة عالمية للنجاح في الأعمال التجارية ، ولم تكن عقلانياتها المزعومة إلا نفعية حقيقية وباختصار كان الاقتصاد السياسي هو الديانة البروتستانتية الجديدة ولا ننسى أن المسيحية الغربية التي أصبح العنف سمتها الرئيسية ارتبطت بالمذابح الدينية والحروب الطائفية ومحاكم التفتيش !

مع الصعود الغربي إبان ما يسمى بعهد النهضة الأوروبية ، تم بعث الثقافة الإغريقية والهيلينية ، وتم بعث الدول والفكرة القومية وظهرت البروتستانتية لتلائم قيم العقلانية والتنوير والنفعية وأصبحت ديانة جوهرها الاقتصاد السياسي وبدأت مرحلة الاستعمار ، أو ما يسمى بسباق الإعلام حيث تسابقت الدول الأوروبية على استعمار العالم ، من خلال إبادة شعوب أمريكا وأستراليا ، ومن خلال نهب ثروات تلك القارات المكتشفة وكذا نهب ثروات الشعوب في آسيا وأفريقيا ، ثم استرقاق سواعد السود لبناء القاعدة الإنتاجية للغرب ، ومن هذا التراكم للثروات المنهوبة واستخدم الرقيق تراكمت الأموال ، وظهرت بنوك

لتمويل عمليات الاسترقاق أو التجارة خلف البحار وظهرت الثورة الصناعية أو التقدم الصناعى الغربى والرأسمالية التى أصبحت منذ تلك اللحظة سمة رئيسية من سمات الآلة الشيطانية ، من سمات الغرب والحضارة الغربية ، ويجب أيضاً أن نضع فى اعتبارنا أن الرأسمالية أيضاً أصبحت أداة قاسية واحدة فى المزيد من الاستعمار وفتح الأسواق والنهب والقهر وتطوير الأداة العسكرية للغرب ومع عام ١٩١٤ كان معظم العالم خاضعاً للاستعمار الأوروبى ، ولكن كان من الطبيعى أن الآلة الشيطانية لا تكف عن العنف فبعد أن مارست هذا العنف والنهب على العالم بأسره مارسته أيضاً مع نفسها ، فكانت الحرب العالمية الأولى والثانية .

واستطاعت الآلة الغربية الشيطانية أن تطور نفسها ، فكانت مرحلة ما يسمى بتصفية الاستعمار ، أو قل مهزلة تصفية الاستعمار ذلك أنه لم يكن أكثر من تطوير للوسائل فى عملية النهب والقهر الغربية المستمرة .

ويعبر المفكر الفرنسى .ك. موريل عن ذلك قائلاً : « إن أروع ما حققه الاستعمار هو مهزلة تصفية الاستعمار ، لقد انتقل الرجل الأبيض إلى الكواكيب ، لكنه لا يزال مخرج العرض المسرحى » .

وبدلاً من العسكر والتجار والمبشرين ، أصبحت هناك حكومات وطنية تقوم بمهمة القهر نيابة عن عسكر الغرب وتقوم أيضاً بالوكالة فى تسهيل عملية النهب ، أصبح هناك جيش وطنى وشرطة وطنية مهمتهما الوحيدة القمع والقهر ، وأصبح هناك وكلاء تجاريون يمررون عملية النهب ، وأصبح هناك مثقفون مغتربون يساهمون فى اجتثاث جذور الثقافة الوطنية وترويض الإنسان المحلى وتنويمه دائماً .

تطورت آلة النهب والقهر ، فأصبحت عبارة عن خبراء وبورصات عالمية تعمل ليلاً ونهاراً ، أقمار صناعية ومحطات بث مستمرة لاجتثاث الثقافات ، مجلس أمن

وقبعت زرقاء شركات عابرة للجنسيات ، شعارات ومبادئ تسهل عملية النهب وتزيده قوة مثل حرية التجارة ، حقوق الإنسان ، التنمية ، التصنيع ، التنوير .. إلخ .
والأمر الآن أشبه بمركز كبير للنهب تمتد منه شبكة ضخمة من الأنابيب إلى كل مكان على وجه الأرض ، إنه وحش مفترس يمد خراطيمه في كل اتجاه يمتص دماء الآخرين ويتغذى على خلاياهم العصبية ويحولهم إلى حالة غير مسبوقة من البؤس ، وهناك آلات رفع ضخمة تساهم في سرعة تدفق الثروات المنهوبة مثل البنك الدولي ، صندوق النقد الدولي ، البورصات ، حرية التجارة ، المؤتمرات العالمية في مجلس الأمن .. إلخ ، وحتى القروض والمنح التي تمنح للمنهوبين من وقت لآخر ليست إلا وسيلة لتنظيف أنابيب النهب وزيادة كفاءتها والمزيد من بناء وتشيد محطات لرفع الثروات المنهوبة والقضاء على أية نتوءات اقتصادية أو ثقافية أو هياكل اجتماعية تعرقل أو تبطئ عملية النهب .

وفي كل يوم يزداد الوحش جشعاً ويزيد جوعاً ، وفي كل يوم تتطور الآلة - آلة النهب والقهر الوحشية وتزداد شراهة ويزداد الضحايا كما ونوعاً بالتالي ، وآخر التطورات في هذا الصدد هو الشركات العابرة للجنسيات ، وبدلاً من أن تقوم بالمهمة دول قومية - هولندا ثم انجلترا ثم الولايات المتحدة مثلاً - أصبحت الفكرة القومية وسيادة الدول ذاتها في مهب الريح ، وإذا كانت تلك الشركات العابرة للجنسية اليوم يمثل رأس مال إحداها أكبر من ميزانية دولة ، وتمثل ميزانيتها مجتمعة أكبر من ميزانية الولايات المتحدة الأمريكية ذاتها فإن الأمر مرشح للتوسع في هذا الاتجاه ، وهكذا فنحن أمام تطور جديد لشكل وطبيعة النهب سيؤدي بالضرورة إلى قيام علاقات جديدة واقتصاد سياسى جديد ، ومزيد من الضحايا الذى لن يفلت منه هذه المرة حتى الغرب ذاته ، فالأمر أصبح أكبر من الدول

القومية وحتى من قارة بأكملها.. إن الوحش أصبح غير خاضع لأحد ولم يعد له مروضون أو مسيطرون .. إنه المزيد من البؤس .. والفوضى والجنون أيضاً .

إن أحد علامات هذه الفوضى هو تنميط الإنسان وفقاً لثقافة واحدة ، وإذا كان الغزو الثقافي والبث المباشر وغير المباشر وسيطرة الغرب على وسائل مهيمنة لنشر ثقافة معينة كان بهدف اجتثاث جذور الثقافات الأخرى وتحويل الإنسان من خاضع بالقوة للنهب إلى مدمن لهذا النهب بمعنى أن يسعى هو نفسه إلى الوحش مصاص الدماء ويطلب منه ويلح أن يمص دمه فإن الأمر حتى سوف يفوق هذا التصور إلى عالم بلا ثقافة ولا حضارة على الإطلاق أو نهاية العالم .. ولكن ينبغي أن يكون نهاية الغرب وحده وليس نهاية العالم وهذا يقتضي الثورة لتحطيم الآلة الشيطانية .

على أى حال يجب أن نفكر في معنى العالمية - الثقافة العالمية - وأن نفكر فيما يروجون له من قيم حضارية واحدة وغيرها ، وأن ندعم التأمل في معنى أن مراكز البث الإعلام الغربى تسيطر على صناعة الأخبار والمعلومات والفنون وبالتالي المشاهد والأذواق والأوامر في إطار انه تغريب للعالم بالقوة بهدف قتل واقتلاع جذور الثقافات الأخرى ، وأيضاً هو في النهاية معاداة لكل ثقافة ؛ لأنه في عالم ذي ثقافة واحدة فإنه لا ثقافة على الإطلاق ! إنه عصر القروء والكائنات المنحطة .

سنبحث الآن عن الضحايا من جهة .. والمستفيدين من جهة أخرى من آلة القهر والنهب الشيطانية مع الأخذ في الاعتبار أن الضحايا يزدادون دائماً كماً ونوعاً ، وأن المستفيدين يقلون باستمرار ؛ لأن الآلة الشيطانية تزدد شراة بمتواليه هندسية ، وسنبحث عن الحل أيضاً .. سنبحث عن العدل المفقود وهو بحث الإنسان الدائم .

وسنبداً بسؤال ساذج وهو : هل يمكن إقناع المستفيدين بالكف عن النهب

والقهر ، هل يمكن إيقاف عمل الآلة الشيطانية عن طريق الإقناع ، أى هل يمكن تحقيق عدل شامل أو حتى جزئى عن الطريق السلمى ؟ والاجابة الوحيدة هى : لا .. لأن طبيعة الآلة وجوهرها عدوانى ، قهرى ، نهى ، ومن العبث طبعاً إقناع الوحش بالكف عن امتصاص الدماء .

إذن لا طريق إلا الثورة ، ولكن ما هى أيديولوجية تلك الثورة والى أى جذر اجتماعي وثقافي تستند ، ومن هم جنودها ؟! وهذا سؤال سوف نجيب عليه بعد فرز المعسكرين ، معسكر الاستكبار ، وكهنة الآلة الشيطانية ومعسكر الضحايا وبالتالي جنود الثورة .

وسنبداً فى دراسة معسكر الاستكبار والمستفيدين ، وسوف نستطرد قليلاً باتجاه الماضى .. فى بداية الاستعمار كان من الممكن أن نجد فى المستفيدين دولاً قومية ، أو حتى طبقات اجتماعية فقط داخل هذه الدول الاستعمارية التجار ، البرجوازية الصناعية ، العسكر ، المبشرين .. أما الآن ومع التطور الهائل للآلة الشيطانية مع الشركات العابرة للجنسيات ومع ازدياد شراهة آلة النهب والقهر لم يعد هناك سوى كبار رجال المال وأصحاب الشركات العابرة للجنسيات والجنرالات الكبار وأصحاب البنوك الكبرى وشبكات البث ، وعلى مستوى أقل الخبراء ، المثقفين المغتربين الذين يبيعون كلماتهم لقاء شىء من دماء الفريسة والمرتبطين بالترويج للآلة الشيطانية ، الوكلاء التجاريين والحكام المحليين فى العالم المستضعف الذين يشاركون فى ذبح شعوبهم ونهبهم لقاء ثمن كبير أو صغير .

أما معسكر الضحايا فهم كل الشعوب المقهورة والمنهوبة فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ، وهم أيضاً المرأة فى الغرب التى حولتها الآلة إلى سلعة تجارية والتى اتعسها السياق الاجتماعى الغربى الذى يسمح بالشذوذ ، فمثلاً لو كان هناك

٣٠٪ من هذه المجتمعات شواذ وهؤلاء يستهلكون مثلهم في إشباع شذوذهم ، فماذا يبقى للمرأة الغربية سوى العنوسة والحرمان ، ثم لماذا تتحمل المرأة مثلاً عبء الجنين غير الشرعى وحدها وحتى لو كان هناك حديث عن إجهاض آمن .. ليس هناك طبعاً إجهاض آمن لأنها عملية جراحية في النهاية لها آثارها الصحية مهما كانت الوسائل الصحية متقدمة ، أليس هذا دليلاً على الظلم الواقع على المرأة ، لماذا لا تحتفظ بجنينها ويتحمل الرجل معها أعباء ولادته وتربيته بدلاً من إجهاضه وقتله ، المرأة إذن في الغرب ضمن معسكر الضحايا وضمن جنود الثورة بالتالى والطبقة العاملة الغربية وصغار الموظفين والعاطلين أيضاً والأطفال اللقطاء كل هؤلاء جنود في الثورة لأنهم ضحايا وإذا كان الغرب في مرحلة تاريخية من تطور آلة النهب والقهر قد نجح في رشوة البروليتاريا وتحييدها بالتالى عن طريق شىء من المكاسب الاقتصادية والاجتماعية فإن استمرار تطور الآلة وبالتالي زيادة جشعها ونهمها اللانهائى سيجعل من المستحيل استمرار تقديم هذه الرشوة وبالتالي فإن هؤلاء الآن أو غداً سيجدون أنفسهم في معسكر الثورة ويجب الأخذ في الاعتبار هنا تزايد معدلات البطالة والتخلص من العمالة باستمرار في الغرب ، وهذا أمر مرشح للاتساع والتفاقم .

بقى علينا أن نبحث في أيديولوجية تلك الثورة ، وينبغى في البدء أن نقرر حقيقة لا يمكن الشك فيها من منظور فلسفى ومن منظور واقعى وتجربى أيضاً ، ذلك أن أيديولوجية أى ثورة لا يمكن أن تكون مستمدة من نفس الأرضية الاجتماعية والفلسفية بل والمعرفية التى أنشأت الأوضاع التى سوف نشور عليها ، ولعل هذا بالتحديد كان السبب فى فشل تجربتين ثوريتين : هما الثورة الاشتراكية الماركسية ، ولاهوت التحرير المسيحى فى أمريكا اللاتينية ، ولاشك الآن ومن منطلق تجربى

ومعروف أن ثورة تستند في أساسها الأيديولوجي والثقافي على ثقافة أفرزت الحالة التي ينبغي الثورة عليها هي ثورة زائفة ، بل هي تكريس وتقوية للأوضاع التي يجب الثورة عليها ، لا بد إذن أن تكون الأيديولوجية الثورية نابعة من سياق ثقافي مخالف بل وعدائي للأرضية الفلسفية والثقافية التي أفرزت الحالة والظاهرة التي تستهدف الثورة الإطاحة بها .

فالماركسية مثلاً نشأت من قلب الفلسفة الأوروبية ، وبالتحديد الألمانية ، واستندت في تحليلها الاقتصادي والتاريخي على علوم الاقتصاد السياسي وعلم التاريخ الغربي والأوروبي بالتحديد ، ولذلك فشلت وما كان لها إلا أن تفشل بل إن فشلها الطبيعي كان دليلاً جديداً على فساد المنظومة الحضارية الغربية برمتها .

يقول المفكر الفرنسي سيرج لاتوش في كتابه تغريب العالم : « ان الاشتراكية كما تحققت في الواقع ليست سوى شكل خاص مختلف من النظم الرأسمالية والمجتمعات الغربية ، فنحن نلقى بكل تأكيد التصنيع مع التمدين وتحويل الجماهير إلى بروليتاريا لكن بوجه خاص عبادة الآلة والتقنية والعلم والتقدم واستئناف مشروع الحدائث المتمثل في قهر الطبيعة .. إنها نفس ميكانيزمات الرأسمالية » .

ويقول : « الرأسمالية مجرد آلية - طبيعية عند الليبراليين ، اصطناعية عند الاشتراكيين ، وبالتالي فالرأسمالية هي الليبرالية والاشتراكية معاً وهي مظهر من مظاهر الخصوصية الغربية للغرب » ويضيف « إن النموذج السوفيتي مثل شكل مختلف للمشروع الغربي أكثر مما مثل بديلاً حقيقياً له » .

ويقول المفكر الإنجليزي أرنولد توينبي : « إن المنافسة بين الاتحاد السوفيتي - السابق - والولايات المتحدة الأمريكية على زعامة العالم وبين الشيوعية والمذهب الحر بالتالي على اجتذاب ولاء البشرية هو موضوع نزاع عائلي داخل أسرة المجتمع

الغربي » .

ولنفس الأسباب كان من الطبيعى ان تفشل أيضاً مسألة لاهوت التحرير المسيحى فى أمريكا اللاتينية وأن تكون ثورة زائفة أيضاً ، لأن جذرها الثورى ينبع أيضاً من نفس المنظومة الحضارية الغربية ومن نفس الوضع الاجتماعى الذى كان ينبغى الثورة عليه ، فلاهوت التحرير المسيحى فى أمريكا اللاتينية ينبع من الكاثوليكية وهى مسيحية غربية وجزء من المكون الثقافى والحضارى الغربى تحمل نفس سماته وعيوبه أيضاً ، بل أكثر من هذا فإن الكاثوليكية بالتحديد تتحمل جزءاً كبيراً من جريمة استعمار أمريكا اللاتينية وما حدث فيها من إبادة للسكان الأصليين ثم نهب مستمر فيما بعد لثرواتها وشعوبها ، وفى هذا الصدد يقول سمير مرقص فى مقال له فى مجلة القاهرة عدد يناير ١٩٩٤ تحت عنوان « تجربة لاهوت التحرير » « كانت الكنيسة الكاثوليكية جزءاً من المشروع الكلى لغزو واستعمار شعوب القارة الجديدة وقد ساهمت الكنيسة بفاعلية فى فرض القانون الاستعمارى على المواطنين الأصليين للقارة اللاتينية ، ومن المعروف تاريخياً أن البابا الكسندروس السادس هو الذى قضى بتقسيم القارة الجديدة بين الأسبان والبرتغال » .

كانت الدودة إذن داخل الثمرة فى كل من الثورة الاشتراكية ولاهوت التحرير المسيحى فى أمريكا اللاتينية لأنها نتجت من نفس الشجرة التى كان ينبغى أصلاً قطعها وحرقها ، وكان من الطبيعى ان تفسد الثمرة .

وعلينا إذن أن نبحث عن جذر ايديولوجى للثورة العالمية على الآلة الشيطانية آلة النهب والقهر الغربية خارج شجرة الحضارة الغربية .

ينبغى إذن أن تنتمي إلى ثقافة مغايرة ، وذات جذر حضارى مختلف ، وبما أن جنود الثورة هم كل شعوب آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية بل والمرأة والعمال ،

والعاطلين وصغار الموظفين في أوروبا وأمريكا فإن أيديولوجية الثورة ينبغي أن تستند إلى حضارة ذات قيم عالمية .

ولاشك أن الإسلام هو وحده الذى يمتلك كل هذه الخصائص التى ترشحه لأن يكون جذراً ثقافياً لتلك الثورة ، فالحضارة الإسلامية حضارة عالمية بكل المقاييس ، فمن ناحية فالخطاب الإسلامى لم يوجه الى منطقة جغرافية أو عرق بشرى معين بل للعالم كله ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ ، ومن ناحية أخرى فإن الحضارة الإسلامية ساهم فيها الأسود ، الأصفر والأبيض والأحمر ، الإفريقى والآسيوى والأوروبى ، التركى والهندى والعربى والفارسى .. إلخ ، وإذا كانت التجربة قد أثبتت أن تلك الحضارة استوعبت مساهمات الجميع فكانت عالمية بالتجربة ، وأن خطابها عالمى فى أصله فإنها وحدها القادرة مرة أخرى على احتضان الثورة العالمية الجديدة وأن تكون جذراً أيديولوجياً لها .

وكذلك فإن الحضارة الإسلامية - وانطلاقاً من الإسلام - لم تحاول إكراه أحد على اعتناق الدين الإسلامى ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ .. ومن هنا نجد أنه مازال فى العالم الإسلامى أقليات مسيحية ويهودية .. إلخ بل نجد أن تلك الأقليات ومن خلال جو التسامح اندمجت فى الحضارة الإسلامية دون أن تدخل الإسلام ، مما يدل على أن الإسلام وهو دين ربانى - يمكن أن تكون حضارته وثقافته أيديولوجية لغير المسلمين .

نلاحظ أن الحضارة الأوروبية غير عالمية رغم زعمها وترويجها لهذا المصطلح ، لأن العالمية تقتضى معايير عالمية ، ولا يمكن لحضارة أفرزت العنصرية ونهب الآخر أن تكون عالمية ، ولا يمكن لحضارة قامت على استلاب الآخر وقهره أن تكون عالمية .

وبالإضافة إلى ما سبق فإن الإسلام لم يعرف العنصرية « كلكم لآدم وآدم من تراب لا فرق بين عربى ولا أعجمى ولا أسود ولا أبيض » وكذلك دعا إلى استثمار

البيئة وليس قهرها ، ودعا الى العدل والإنصاف والحرية فالجهاد الإسلامى مثلاً كفريضة على المسلمين يتوجه لإزالة القهر والنهب وإزالة الاستكبار والاستبداد ومحكوم أيضاً باعتبارات وقيم رفيعة بحيث لا يكون هناك عدوان الا على الظالمين ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ فتنة الظلم والكفر والنهب ، والقهر ، ﴿فَإِنْ أَنهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ ، فغايات الثورة الإسلامية وبالتالى العالمية هى القضاء على النهب والقهر والعنصرية والتغريب وتدمير الآلة الشيطانية الغربية وتحقيق العدل والمساواة واللاعنصرية بل والمجتمع اللاتبقى واحترام كرامة الإنسان أليست نفسها نفس المبادئ الإسلامية؟!

وكراهية الظلم - بل وجعل الثورة عليه فريضة إسلامية هى من الأمور المعلومة من الاسلام تماماً ، ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ وفى الحديث القدسى .. «لأنتمن ممن رأى مظلوماً فقدر ان ينصره فلم يفعل» أى أن رؤية الظلم ولو على الآخرين وعدم الثورة على الظالم إنصافاً للمظلوم أمر يستوجب انتقام الله تعالى وغضبه .

ويقول الرسول ﷺ : « لا يقفن أحدكم موقفاً يقتل فيه رجل ظلماً فإن اللعنة تنزل على من حضر حين لم يرفعوا عنه ، ولا يقفن أحدكم موقفاً يضرب فيه رجل ظلماً فإن اللعنة تنزل على من حضره حين لم يرفعوا عنه » .

وفى إطار الآداب والقيم المعروفة للثورة والجهاد الإسلامى ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

والتراث الإسلامى نصوصياً وحضارياً غنى بالدعوة إلى الثورة على الظالمين وفق قيم وآداب رفيعة تحول بين الخلط بين الثورة والفتنة والبغى ، وتحدد هدف الثورة

« الظالمين » ولا شك أن آلة النهب والقهر الغربى وهؤلاء المستفيدون بها ظالمون جائرون لهم ضحايا ومظلومين بالملايين والأمر يستحق الثورة وحتى في إطار إنصاف الفقراء والمحرومين وتحقيق العدل الاجتماعى فإن التراث الإسلامى غنى بالنصوص والمواقف والرؤى والمناهج التى تجعل منه جذراً ثقافياً لأيدولوجية الثورة العالمية ثورة الفقراء والمطحونين والمحرومين « ليس منا من بات شبعان وجاره جائع » والجار هنا قد يكون فرداً أو أسرة أو دولة أو قارة أو حتى كوكب « من كان عنده فضل ظهر فليعده على من لا ظهر له ، من كان عنده فضل مال .. أو فضل زاد أو ملبس .. الخ فليعده على من لا مال له له .. الخ » وهى دعوة لتحقيق المجتمع اللاتبقى ، ودعوة أيضاً للثورة على هؤلاء الذين يمنعون ما زاد عن حاجتهم فى حين يحتاج إليها الآخرون .

وعلى بن أبى طالب يقول : « ما متع غنى إلا بها حرم منه فقير » أى أن تراكم المتعة والغنى والمال يأتى من سرقة حقوق الفقراء سواء بسواء توزيع الثروة المتاحة - السرقة من المنبع - أو بأكل فائض قيمة عمل هؤلاء الفقراء بإعطائهم أقل من حقهم فى عملهم وكدهم ، أو بتعطيلهم عن العمل أو الفساد أو الرشوة .. الخ .

وأخيراً قول أبى ذر الغفارى رضى الله عنه : « عجبت لمن لا يجد قوت يومه ثم لا يخرج على الناس بسيفه » وهو يؤكد هنا وجوب ومشروعية ثورة الفقراء والمحرومين وهكذا فالإسلام من حيث عالميته ، ومن حيث كونه ثقافة مغايرة ومعادية للثقافة والحضارة الغربية ، وبحكم نصوصه وتراثه الثورى عموماً والدعوة إلى ثورة الفقراء والمحرومين خصوصاً يصلح كجذر أيدولوجى للثورة العالمية المنشودة .

ويبقى هنا أن يضطلع المسلمون بعبء الثورة العالمية كجنود لها ، وكطليعة أيضاً

لباقى المطحونين والمحرومين فى العالم وأن يضطلع علماء الإسلام بتقديم الإسلام كأيدىولوجية للثورة العالمية والأمر هنا ليس تفضيلاً بلا مبرر للإسلام على غيره ، بل لأن الثقافات الأخرى التى نحترمها ولا نريد القضاء عليها هى ثقافات إما غير ثورية أصلاً ، أو أنها غير عالمية ، أو أنها غير قادرة من الناحية الفلسفية على مواجهة ناجحة مع الحضارة الغربية وبالتالى مع آلة النهب والقهر الغربى .

إن الأمر ليس أكثر من قراءة علمية محايدة ، قراءة تقول بأن عدة قرون من الظلم والقهر والفقر والنهب والبؤس على يد الحضارة الغربية وآلتها الشيطانية ينبغى أن تنتهى ولن يكون ذلك إلا بالثورة التى يشارك فيها كل الضحايا وهذه الثورة تحتاج إلى جذر ثقافى وأيدىولوجى لا بد أن يكون عالمياً ومعادياً للحضارة الغربية فى نفس الوقت ويحمل تراثاً ثورياً واضحاً ، وليس هناك إلا الإسلام كدين وكحضارة وكأيدىولوجية للثورة الذى يمكنه أن يكون هذا الجذر الثقافى للثورة العالمية المنشودة.



المنهج الحركى من خلال تجربتى

النبي عيسى ابن مريم والنبي يحيى بن زكريا عليهما السلام

د- محمد مورو

لا شك أن سيرة الأنبياء والرسل تمثل ذخيرة حية ونابضة ومفعمة بالتجارب لكل حركة دعوة أو إصلاح أو تغيير منشود ، وهكذا لم يكن حرص القرآن الكريم على إثبات وتحليل هذه التجارب وغيرها إلا دعوة للتأمل فى تلك التجارب بهدف الاستفادة منها ، والتأمل كذلك فى الأمراض والأعراض التى تلحق بالأمم والجماعات فتقودها إلى طريق الهلاك حتى نتجنبها.

ولا شك أيضاً أن المساحة الواسعة فى القرآن الكريم التى تناولت بنى إسرائيل - من حيث فسادهم الدينى والأخلاقى - ومن حيث تجارب الأنبياء معهم ، وبهم مع غيرهم من الأمم ، لم تكن عبثاً ، ذلك أنها مقصودة بالطبع لأن من الممكن أن تلحق بنا كآمة إسلامية ورثت الكتاب والنبوة والرسالة ، وورثت دور الشاهد على الناس الى يوم القيامة ، يمكن أن تلحق بنا هذه الأمراض ، وبالتالي فيجب معرفتها لتجنبها وكذا بالنسبة لطليعة الأمة « علماء أمتى كأنياء بنى إسرائيل » أن يفهموا مسيرة الأنبياء للاستفادة منها فى مجال الدعوة والإصلاح والتغيير .

ولا شك كذلك ، فى أن للتجارب خصوصيتها زماناً ومكاناً ، وأنه من غير الصحيح التقليد الهندسى للتجارب السابقة ، ولكن الاستفادة منها كمنهج متكامل تتغير طريقة تركيبه على الواقع فى كل مرحلة ومهما كانت درجة التشابه بين حالة نمر بها وبين تجربة سابقة لأمة أو نبى فإن من الضرورى إدراك استحالة الانطباق

الهندسى بين حالتين مهما بلغت درجة التشابه وهذا لا يمنع بالطبع من الاستفادة من تلك التجارب ، بل يؤكد على ضرورة هذه الاستفادة مع إدراك أهمية الإبداع والتجديد فى الفهم والممارسة ومواجهة المستجدات .

وتمثل حياة الأنبياء وأحوال الأمم التى ظهوروا فيها - كل - أنواع وأشكال طرق الإصلاح الدينى والاجتماعى والأخلاقى والسياسى والاقتصادى .. وكذا تمثل أوضاع الأمم التى ظهوروا فيها مختلف أنواع الفساد والأعراف والزيغ والأمراض الاجتماعية والدينية والأخلاقية والسياسية والاقتصادية .

فهناك من الأنبياء من بدأ مع مجتمع مسلم ، أى كان المطلوب فقط المحافظة على حالته الصحيحة ثم حدث انحراف فى فرد أو أفراد مثل آدم وأولاده الأوائل .. وهناك من واجه مجتمعاً كافراً أخذ يدعوهم دون جدوى - اللهم إلا القليل الذى آمن معه - مثل نوح وغيره ، ومنهم من واجه إلى جانب الكفر انحرافاً أخلاقياً مثل لوط ، ومنهم من بدأ تأسيس أمة - تكون شاهدة على الناس - مثل إبراهيم ، ومنهم من واجه إلى جانب الكفر الظلم الاقتصادى مثل شعيب ، ومنهم من واجه أمة لديها الدين الصحيح والرسالة والكتاب ولكنهم انصرفوا قليلاً أو كثيراً مثل أنبياء بنى إسرائيل أو واجهت عدوا يريد البطش بها مثل أنبياء بنى إسرائيل أيضاً - داود مثلاً . ومنهم من وجد نفسه فى مجتمع لا ينتسب إليه ، وكان مطلوباً منه أن يعايشه ويصلحه من داخله فاستخدم أساليب شتى ووصل إلى وظائف عليا فى ذلك المجتمع دون أن يتخلى عن رسالته مثل يوسف ، الذى تصلح تجربته نموذجاً للمسلم الذى يعيش فى إحدى الدول الأوروبية مثلاً فى هذا العصر - مع الفوارق طبعاً ، من الرسل من انتصر ومنهم من انهزم ، من مات ومن قتل ، وهكذا يتشكل لنا فى النهاية أوسع تجربة نستفيد بها فى كل حالة وأى حالة .

ومن الرسل من كان مثل محمد صلى الله عليه وسلم الذى أكمل الله به الدين ونقل إليه وإلى أمته من بعده - بعد أن فقدت بنى إسرائيل مقومات استمرارها بسبب فسادها وعنادها - نقل إليه وإلى أمته من بعده واجب الرسالة إلى الناس جميعاً ، ﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ﴾ وبالطبع فإن العقيدة الصحيحة والمنهج الصحيح والإسلام الكامل شريعة وعقيدة وممارسة تم على يد محمد صلى الله عليه وسلم لأنه خاتم الرسل ، والاستفادة من تجربة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم واجب بالطبع ، خاصة أنها تجربة ممتدة من دعوة للكافرين ، إلى إقامة مجتمع للمسلمين في المدينة مع وجود أقليات تعايش معها في البداية مثل المشركين واليهود في المدينة ، إلى الصراعات بين دولة الرسول والقوى المشركة في الجزيرة العربية ، إنها تجربة تجمع بين تجارب دعوة الكافرين إلى تجارب إقامة مجتمع للمسلمين ، إلى تجارب مواجهة المنافقين ، إلى تجارب معايشة المشركين واليهود - وثيقة المدينة نظمت تلك العلاقات - إلى تجارب صراع الدولة المسلمة مع غيرها من القوى .. الخ.

وهناك تجارب الرجال الصالحين ، مثل الخضر عليه السلام ، الذى خرق السفينة لبيعها - فعلمنا أن نخفى علامات قوتنا عن أعين الظالمين ولعل هذه التجربة لازمة لنا في أحوالنا المعاصرة ، حيث كلما ظهرت قوة حركات الإصلاح وحدث نوع من استعراض هذه القوة في نقابة أو انتخابات أو موقع اجتماعى أو خدمى كان هذا دعوة للظالمين للبطش بها وتصفيتها ومصادرتها .

وسوف نختار في هذه الدراسة ، تجربة هى أقرب التجارب شبهاً بنا - دون إغفال المتغيرات الطبيعية بالضرورة ، وهى تجربة دعوة المسيح عيسى ابن مريم عليه

السلام في بني إسرائيل وكذا تجربة نبي معاصر له هو النبي يحيى عليه السلام .
وأوجه الشبه كبيرة جداً بين حالتنا المعاصرة وحالة نبي الله عيسى ابن مريم في
بني إسرائيل. أو قل هي أكثر التجارب شبيهاً لأحوالنا المعاصرة .. فوجب الاهتمام
بها ودراستها والاستفادة منها .

وأول أوجه الشبه تلك هي أن نبي الله عيسى جاء إلى بني إسرائيل لإصلاحها
من داخلها ولم يكن صاحب دعوة إلى غيرها من الأمم أساساً وهو لم يأت لنقض
شريعة موسى ، أو تغيير دين اليهود ، بل جاء ليكمل الناموس ويؤكد على المعاني
الصحيحة والفهم الصحيح والممارسة الصحيحة .

يقول المسيح عن نفسه في الإصحاح الخامس : « لا تظنوا أنني جئت لأنقض
الناموس أو الأنبياء ، ما جئت لا أنقض بل لأكمل .. » وقوله : « على كرسي موسى
جلس الكتبة والفريسيون ، فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه ، ولكن
حسب أعمالهم لا تعملوا لأنهم يقولون ولا يفعلون » .

أى أنه يقر النص والوصايا والمرجعية النظرية .. ولكنه جاء لإعادة روح الممارسة
وروح الفهم الصحيح للنص والمرجعية والمنهج ، وكونه فقط مرسل لإصلاح بني
إسرائيل مثل قوله : « إلى طريق أمم لا تمضوا إلى مدينة السامريين لا تدخلوا ، بل
اذهبوا بالحرى إلى خراف بني إسرائيل الضالة » الإصحاح العاشر . وقوله : « لم
أرسل إلا إلى خراف بني إسرائيل الضالة » الإصحاح الخامس عشر .

نحن إذن أمام أمة مكلفة برسالة .. ولم تفقد مرجعيتها النظرية مثل حالتنا الآن ،
ولكنها افتقدت روح المنهج والفهم والممارسة ، وفقدت الكثير من الشروط التي
تكفل لها الاستمرار على هذه المهمة ، فكان المطلوب استعادة المضامين والشروط
وروح المنهج والممارسة لدى هذه الأمة حتى لا تفقد مبررات وشروط استمرارها

كأمة رسالية ، وهذا ما هو مطلوب منا الآن وعلى علمائنا - الذين هم كأبناء بني إسرائيل - القيام به .

ولا شك أن الرسالة لا تورث بالجنسية أو العصبية أو القومية بل بامتلاك شروط معينة والعمل شكلاً ومضموناً بمقتضاها ، وإذا كانت أمة بني إسرائيل قد فقدت هذا الشرف بعد أن فقدت شروطه وآل الأمر إلى أمة الإسلام فارجوا ألا نفتقده بدورنا لافتقادنا شروطه !

ومن أوجه التشابه أيضاً : وجود الظروف الموضوعية والذاتية شديدة التشابه بيننا وبين تلك التجربة ، فالأمة اليهودية في ذلك الوقت كانت أمة محكومة بالأجانب .. أى خاضعة لسيادة خارجية هي الدولة الرومانية .. ونحن بدورنا خاضعين للنفوذ الغربى ، والدولة الرومانية في ذلك العصر كانت قد بلغت أوج قوتها ودخل في حوزتها العالم المعمور كله ما عدا الشرق الأقصى ، مثل أمريكا الآن التى تهيمن على العالم فيما يعرف بعصر القطب الواحد أو النظام العالمى الجديد .

وكانت الفلسفات والأفكار ذات طابع عالمى وكذلك العقائد والمذاهب بمعنى أن الحياة الفكرية من الهند إلى الأطلسى مروراً بالاسكندرية ونابلس وروما كانت شديدة الترابط والاتصال . وهذا هو حالنا الآن مع إدراك الفارق الكمى - وليس النوعى - فى سرعة الاتصال حالياً . بل حتى قبل ظهور المسيح بقليل ، إبان الصراع بين الفرس والروم ، الذى يشبه الصراع بين الاتحاد السوفيتى وأمريكا ، والذى انتهى أيامها لصالح الرومان وانتهى حالياً لصالح أمريكا ، ويمكن أيضاً أن نشبهه بالصراع بين أمريكا وأوروبا أو أمريكا وفرنسا ، أو أمريكا والصين .. الخ ، كان هذا الصراع يجد له أنصاراً داخل أمة اليهود ، فهناك من ينحاز إلى الرومان وهناك

من ينحاز إلى الفرس !! مثل حالتنا بالضبط .

إذن فهناك أشياع وأتباع سياسيون لهذه القوة أو تلك داخل أمة اليهود في ذلك الوقت ، وكذلك هناك الكثيرين ممن تأثروا بالفلسفات المختلفة ، من خارج إطار أمة اليهود - فهناك من تأثر بالفلسفة الفيثاغورية أو الفلسفة الأبيقورية أو الفلسفة الرواقية ، كحالتنا في التأثر بالمذاهب السياسية أو الفلسفية المختلفة من رأسمالية واشتراكية ديمقراطية ، وماركسية أو من تأثر بالبراجماتية ، أو المادية المثالية ، أو الوصفية المنطقية ، أو البنائية أو فلسفة الحداثة وما بعد الحداثة .. الخ .

وبالطبع انتشرت بين اليهود خاصة الطبقة الأرستقراطية المرتبطة بالنفوذ الروماني ، أنماط وأذواق الملبس والمأكل والآداب الرومانية وطرق الحياة والثقافة والألعاب وغيرها ، وهكذا فنحن أمام حالة أمة خاضعة لنفوذ سياسى وعسكرى أجنبى ، مختزقة ثقافية مستلبة حضارياً تجاه الأجنبى ، أليست هذه هي حالتنا بالضبط ؟!

وحتى على المستوى العام اقليمياً وعالمياً ، فإن الحالة كانت شبيهة بما نعيشه الآن ، فقد كان معظم العالم المعروف في ذلك الوقت خاضعاً سياسياً وعسكرياً ومنهوب اقتصادياً للدولة الرومانية ، وكان هناك سوء توزيع مروع للثروة ، فكان هناك ثروة وترف وطغيان من ناحية وفقر وضنك وهوان من ناحية أخرى ، كان هناك بذخ وترف ولهو من جانب السادة ونقمة من جانب العبيد والمسخرين ويصف المسيح نفسه أحوال العالم في تلك الفترة ، التى ضاعت فيها المعايير والقيم والعدالة والحرية وتسلط فيها السادة الرومان على الناس بقوله : « إن للثعالب جحور وللطيور أوكاراً ، أما ابن الإنسان فليس له شيء يسند رأسه » ، أليس هذا هو حال عالمنا المعاصر

بالضبط الذى تستبد به القوى الكبرى وتنهبه ، وبحيث ضاعت فيه الحقوق تماماً وظهر فيه ازدواج المعايير بحيث لم يعد لابن الإنسان قوة تسنده ، أليس الفقر والجوع والموت والحروب الأهلية وغيرها مما نعيشه الآن تحت ظل الهيمنة الأمريكية ، هو نفسه ما كان يحدث فى العالم أيام المسيح ؟!

وفى فلسطين ذاتها ، ألا نخبرنا الأناجيل ، عن آلاف الجوعى والمرضى والعجزة والمجانين والصم والعمى والخرس الذين جاءوا للمسيح طلباً للشفاء .. ألا يدل هذا على الحالة المتردية للناس أيامها مثل الصور التي نراها حالياً للجوعى يتدافعون للحصول على شئ من معونات الأمم المتحدة ؟!

بل حتى على مستوى تمزيق الدول وإثارة الحروب الطائفية والعرقية والصراعات بين الكيانات السياسية المختلفة كان الأمر متشابهاً ففى فلسطين مثلاً كانت هناك ثلاث دويلات متصارعة فيما بينها ، ويعلق العقاد فى كتابه حياة المسيح على ذلك قائلاً فى ص ٤٤ : « وقصدت روما بهذا التمزيق أن تخيف كل ولاية وتلجئهم إلى التنافس بينهم فى مرضاتها وتتخذهم جميعاً درعاً تدفع به غارات الصحراء وهياج المتعصبين » .

وبالإضافة إلى تلك الحالة المماثلة لنا إقليمياً ودولياً ، فإنه من ناحية الفساد والانحراف والأمراض الاجتماعية التى تفشت فى اليهود فى ذلك الوقت من حب للجدل بلا طائل ، والتمسك بالشكل على حساب الجوهر ، واستخدام بعض رجال الدين لتبرير تصرفات الحاكم الأجنبي ، وإعطاء غطاء شرعى لكل الممارسات الفاسدة أخلاقياً واقتصادياً والتخلي عن شروط الأمة المختارة ، فإننا نتشابه فى ذلك معهم فى كثير من الأمور ، ويصف المسيح هذه الحالة بقوله : « إنهم

حولوا الهيكل من مكان صلاة وطهارة إلى مغارة لصوص .

إذن فنحن أمام تجربة ، هى أقرب التجارب إلى حالتنا الراهنة ، من حيث التشابه فى وجود أمة منوط بها رسالة فقدت شروط رسالتها وضربت فيها الأمراض والانحرافات ، وإلى خضوع هذه الأمة للنفوذ الأجنبى ، وإلى وجود أحوال إقليمية وعالمية متشابهة ، وبالطبع فإن التشابه لا يصل إلى حد الانطباق الهندسى من ناحية ، فهناك فروق وملاحظات يجب إدراكها وكذلك من البديهي ان الاستفادة من كل التجارب النبوية وغير النبوية وارد بالطبع ، ومن الملاحظات والفروق مثلاً :

- إن فساد وانحراف بنى إسرائيل وصل إلى حد كبير بحيث تعدوا شروط الأمة المختارة ، وهذا لا يمنع بالطبع وجود عدد قليل منهم كان لا يزال يتمسك فكراً وممارسة بالدين الصحيح ويدل على هذا قول القرآن الكريم ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ ﴾ وقوله ﴿ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ فهناك داخل أمة اليهود المنحرفة - فى تيارها العام والرئيسى - الصالحين من أمثال آل عمران وعيسى نفسه ، ولكن هؤلاء الصالحين ليسوا إلا قلة تؤكد القاعدة ، أما حالتنا الإسلامية الراهنة فنرى أن هناك انحرافات كبيرة ، إلا أن المجرى الرئيسى لا يزال صحيحاً وليس قلة من الأفراد فقط ، وهذا معناه أن فقدان بنى إسرائيل لصفة الأمة المختارة لفقدانها شروطها ، لم يحدث لنا - ونسأل الله ألا يحدث لنا - فإزلنا - رغم الانحرافات والأمراض الخطيرة . نحمل فى التوجه العام الشروط أو معظمها التى تؤهلنا لصفة الشاهد على الناس والقيام بواجبات الأمة المختارة ورسالتها ، ويجب ألا نتخذنا هذه الحقيقة أيضاً عن ضرورة المسارعة فى الإصلاح .

- إنه كان في بنى إسرائيل جماعات فكرية وعقيدية مثل الصدوقيين والفريسيين والسامريين وخليط من اليهود والآشوريين والغلاة وغيرهم وبالطبع كانت هذه الجماعات أو الطوائف تحمل أفكاراً فيها الصحيح والخاطئ ، وكذلك لدينا الآن أمثال هذه الطوائف والجماعات ، وبالطبع ليس هنا مجال تقييم أو دراسة هذه أو تلك بل يهمننا دراسة الظاهرة في مجراها الرئيسى .

- إنه في حالة أمة اليهود ، فإنها كانت محدودة من حيث العدد ، والاتساع الجغرافى ، في حين أن الأمة الإسلامية كثيرة العدد الآن « حوالى ١٥٠٠ مليون نسمة » وممتدة من طنجة حتى جاكرتا ومن سرايفوا حتى جنوب أفريقيا ، بل موجودة في كل مكان على وجه الأرض ، وهذا فارق نوعى هام ينبغي أخذه في الاعتبار .

لدينا في عصر النبى عيسى ابن مريم تجارب هامة في مواجهة هذا كله ينبغي دراستها والاستفادة منها ؛ لأنه كرسول مبلّغ عن الله تعالى استخدم أسلوباً مشروعاً يمكن القياس عليه من ناحية ويمكن فهمه مجملأً كمنهج ربانى في مواجهة مثل هذه الحالة التى واجهها أو شبيهها بها أو الاستفادة من جزئيات هذه التجارب وملاحظتها التفصيلية .

ولكن قبل البدء في الاقتراب من تجربة وخطاب وأسلوب نبى الله عيسى ابن مريم ، لدينا تجربة معاصرة لها ، أى أنها واجهت نفس الظروف .. إنها تجربة يوحنا المعمدان أو النبى يحيى عليه السلام ، وهو ابنة خالة المسيح وفي نفس سنه تقريباً وعاش في نفس الفترة وواجه نفس الأوضاع والقوى ، ركز يحيى عليه السلام على جانب الحب .. حب الإنسان أى إنسان تقياً أو عاصياً صالحاً أو طالحاً ، حتى ولو كان يملأ الأرض بذنوبه وضعفه الإنسانى ، ولكنه كان يرفض مسايرة الظلم ، أى

ظلم من أى نوع ، كان يحىي شديد الحنان بالديه وبالناس والمخلوقات والطيور والحيوانات والأشجار ، أى أنه استخدم الأسلوب « الإنسانى » فى دعوته ، وهذه الجوانب الإنسانية - للأسف غائبة فى الحركة الإسلامية المعاصرة وبخاصة المتشددين المشهورين بالقسوة الشديدة !! ظناً منهم أن هذا تمسكاً بالشرعية ، والصحيح أنه على العكس تماماً ؛ لأن يحىي كان من أكثر الأنبياء والرسل تمسكاً بالشرعية وبالكتاب والله تعالى يقول عنه ﴿يَتَّبِعُنِيْ حُذِ الْكِتَابَ يَقُوْفُ﴾ ، ولكن أهم ما نتعلمه من يحىي هو أنه كان رقيق الحاشية ﴿وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا﴾ ، كان يخاطب الجانب الإنسانى فى الناس ، كان إذا تكلم أبكى الناس من الحب والخشوع وأثر فى قلوبهم قبل عقولهم وهذا بالطبع كان لازماً لمواجهة المادية التى طغت على كل شىء ، والقسوة التى صبغت كل شىء فى ذلك الوقت .

أما موقفه من المؤسسة الحاكمة ، أى من الحاكم التابع للدولة الرومانية فهو موقف تعليمى لكل داعية ، لم يكن هذا الحاكم - كأى حاكم - مجرد فرد حاكم طاغية بل هو ممثل لمؤسسة الفساد ، الفساد الاقتصادى والسياسى والأخلاقى .. ويديهى أن الفساد الأخلاقى هو نتيجة طبيعية للفساد السياسى والاقتصادى ، كان هذا الحاكم يريد أن يتزوج ابنة أخته ، وهو محرم فى الشرعة بالطبع وكان هذا السلوك وتلك الرغبة تعبير عن فساد أخلاقى طال كل شىء ، كان تعبيراً كاملاً عن فساد المؤسسة الحاكمة سياسياً واقتصادياً وأخلاقياً ، وطلب هذا الحاكم من النبى يحىي أن يبحث له فى الشرعة عن طريقة تحل له هذا الزواج ، إنه يريد أن يأخذ غطاءً شرعياً للممارسات المؤسسة ، مؤسسة الفساد ولكن نبى الله يحىي رفض بالطبع ، ليس رغبة فى الصدام ، فلم يكن ينتهج أسلوب الصدام ، ولكنه رفض أن يتحول إلى غطاء شرعى للممارسات مؤسسة الفساد ، وهذا يعنى أن إعطاء مؤسسة الفساد

الاقتصادى والسياسى والأخلاقى شرعية من أى نوع أو أن نصبح جزءاً من هذه المؤسسة بطريقة أو أخرى أمر مرفوض تماماً ، وهكذا كان رفض النبى يحى ، الذى دفع ثمنه غالياً ولكنه كان راضياً بهذا الثمن ، كان هذا الثمن هو قتل النبى يحى وتقديم رأسه الشريف على طبق لتلك العشيقة الماجنة !

تجربة المسيح عيسى ابن مريم فى مواجهة الظرف الذاتى والموضوعى الذى واجهه تجربة ثرية بلا شك ، وهى أقرب التجارب شبيهاً لما نعيشه الآن كما قلنا من قبل ..

فالمسيح كان وديعاً متواضعاً رحيماً بالخاطئين والعائرين متجرداً من أوامر المنافع والشهوات ، أى غير مرتبط بالمؤسسة الحاكمة ولا بحلفائها ، يوجه خطابه للجماهير الفقيرة والمطحونة والمريضة والعاجزة والبؤساء من كل نوع ، والمستضعفون هم الحلفاء الطبيعيون لأية دعوة تغيير أو إصلاح ؛ لأنهم ليس لهم مصلحة من استمرار الأوضاع التى ظلمتهم وهمستهم ، لم يوجه المسيح خطابه للمؤسسة الحاكمة ، بل إلى الجماهير ، لم يأت بجديد فى الشريعة ، بل أكد على الشريعة الموسوية وناضل ضد فهمها النفعى « البراجماتى » والتجارة بها أو الجمود على شكلها الخارجى فقط ، وهذا يعنينا بالطبع فيجب أن نتوجه الى الجماهير أيضاً ، ويجب ألا نكون جزءاً من مؤسسة الفساد شكلاً ومضموناً ، ويجب أن ننحاز الى الفقراء والمستضعفين وأن نوجه خطابنا لجميع هؤلاء ، ونحن أيضاً لسنا ديناً جديداً ، ولا نأتى بنص جديد أو حتى فهم جديد للشرائع والعقائد المستقرة ، بل ممارسة جديدة ، والدخول إلى روح النص ، كما فعل المسيح عليه السلام ، ونكرر لسنا ديناً جديداً ، ولا فرقة دينية جديدة ، بل محاولة للنهوض وإصلاح الأمة والقضاء على

أمراضها الاجتماعية والتصدى لمؤسسة الفساد وإعادة صياغة الإنسان روحياً في مواجهة المادية الطاغية والتأكيد على المرجعية الربانية بدلاً من مرجعية المادة والحوسلة والحداثة وما بعد الحداثة !!

كان المسيح يدرك أنه عندما يخلص الجماهير من العبودية للمادية وهى إله ذلك العصر ، وإله عصرنا أيضاً فإنه كان يضرب مؤسسة الفساد فى مقتل ، كان يدرك حين ينحاز إلى الفقراء والمستضعفين أنه يشعل الثورة على مؤسسة الفساد ، يقول المسيح « جئت لألقى على الأرض نارا فحبذا لو تضطرم » ويقول لتلاميذه : « اتحسبوننى أتيت لأمنح الأرض سلاماً .. كلا وإنما هو الصدام والانقسام » .

كان المسيح حين يدعو إلى خلاص الضمير ونقاء الروح ، يدعو بالضرورة الى مقاطعة مؤسسة الفساد وإلهاها المادى ، بل يدعو للثورة عليها أو على الأقل رفض الخضوع لها وخدمتها .

واجه المسيح تحجر الأشكال والأوضاع فى الدين والاجتماع ، وتحجر نظام المجتمع الذى أصبح أشكالا ومراسم خلت من المعانى والغاية بل وتحجر الشرائع والقوانين ، وأن التقوى أصبحت اجترار النصوص والبحث عن مراسم الشريعة وغلبة المظهر ، وانتشر الخلاف على النصوص والحروف وخلاف التأويل والتحليل .

كان النبى عيسى مثل : النبى يحيى يحب البسطاء والخاطئين وكان أعداؤه يعيرون عليه ذلك فقالوا عنه : « إنه محب للعشارين والخطاة » وكان يوحنا المعمدان « النبى يحيى » يقول لهم : « يا أولاد الأفاعى لا يهجنس بأخلاقكم أنكم تنتسبون إلى إبراهيم إنى أقول لكم إن الله قادر على أن يخرج من هذه الحجارة أبناء لإبراهيم » .

ويعلق الأستاذ عباس محمود العقاد على ذلك قائلاً فى كتابه حياة المسيح : « إنه يذكر اسم الله ويرشهم بالماء ويمسح على رؤوسهم فهم بعد ذلك أهل للدخول فى

زمرة النائبين وطلاب الخلاص ولو لم يكن لهم نسب في آل يعقوب وإبراهيم» .

ولأن دعوة المسيح ويوحنا المعمدان اتجهت إلى الجماهير ، ورفضت المؤسسة الحاكمة أو المتحالفين معها ، فقد تنكر لها الكهان والفقهاء ومحترفوا الدين ، وأحبها الجماهير ، فكان الناس يحبون كلاً من المسيح ويوحنا المعمدان حباً جماً ، يقول العقاد في نفس الكتاب ص ٩٦ : « لم تذهب دعوة يوحنا سدى بين الدهماء وبقي اسم يوحنا مقدساً محبوباً لديهم لدرجة أن الأدعياء خافوا أن يجترئوا عليه حتى لا ينقموا أغلبية الشعب » .

وبديهي أن الانحياز للفقراء والمرضى والمستضعفين والدهماء ورفض المؤسسة الفاسدة كان يعنى بالضرورة أن يارس كل من المسيح ويوحنا المعمدان حياة الزهد والبساطة ، وأن يرفضاً الانتفاع بأى شكل من أشكال الصلة بتلك المؤسسة بل أن يرفضاً تقاليدهما في الترف والغنى ، فكان قوتها من الجراد والعسل البرى ، ولا يعقل طبعاً أن يكون المناضلين ضد مؤسسة جزء منها أو يقبضون منها أول النهار ثم يلعنونها آخر النهار أو توجه دعوتهم للجماهير ثم يعيشون حياة الترف التى يعيشها مصاصو دماء الجماهير حتى ولو كان ذلك نتيجة عمل مشروع أو جهد مأجور - وهو أمر صعب أصلاً - ولكن حتى لو فرض إمكانية تحقيقه فإنه يفقد المناضل مصداقيته .

كانت المؤسسة تدرك خطر دعوة المسيح عليها وكذا من قبله دعوة يوحنا المعمدان ، وكان محترفوا الدين كذلك والمرتبطون بالمؤسسة ، كل هؤلاء تأمروا بقتل المسيح وقتل النبى يحيى «يوحنا المعمدان» .

كانت المؤسسة هى سبب الفساد ورأسه ، أما المذنبون والخاطئون الصغار فهم ضحايا تلك المؤسسة قبل أن يكونوا مذنبين وخاطئين وعصاة ، كان المسيح يفهم هذا ويدركه ، ولذا فهم أن التطبيق الحرفى للشريعة ، فى ظل مؤسسة ظالمة مستبدة فاسدة هو أكبر الظلم وأكبر خروج على الشريعة ، ولذلك عندما جاؤوا للمسيح

وهو في الهيكل بامرأة زانية وقالوا له : إن شريعة موسى تقول : ارجعوا الزانية فما زاد على أن قال : « من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر » .

كان الظرف لا يستدعى قاضياً أو حسيباً على الناس بل قلب كبير يجذب إليه الضحايا والمظلومين ، ولذلك عندما طلب منه أحدهم أن يقسم الميراث بينه وبين أخيه قال له « من أقامني عليكم قاضياً أو حسيباً ؟ » .

كان المسيح يضع الفأس على رأس المؤسسة حين يلفت نظر الناس إلى الدخول إلى لب المسائل وليس قشرتها ، إلى اليد التي تقف وراء القفاز وليس القفاز نفسه ، إلى رأس الفساد وليس ضحاياه ، وكذلك حين ينادى الجماهير « طوبى للحرزاني ، طوبى للمساكين ، طوبى للجوع والظماء ، طوبى للمطرودين في سيل البحر ، طوبى للودعاء والرحماء ، تعالوا إلى يا جميع المتعبين والمثقلين » إنه هنا لا يدعوهم إلى الجوع بل إلى الثورة على ناهبيهم وغاصبي قوتهم ومضطهديهم .

لم تكن الشريعة يوماً لاقتناص واصطياد الناس ، ولم تكن الشريعة يوماً معنى مجرداً عن الزمان والمكان والظروف ، ولم تكن الشريعة يوماً إلا لإصلاح حال الإنسان ولها غاياتها العليا دائماً وهكذا فإن المسيح عندما عالج المرضى يوم السبت وقال له محترفو الدين أن العمل يوم السبت محرم في شريعة موسى قال لهم المسيح : « خلق السبت للإنسان ولم يخلق الإنسان للسبت » ، وبعده عفا عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن السارق ولم يقم عليه الحد ، بل هدد بعقاب سيده الذي أجاعه فدفعه إلى السركة ، هكذا يفهم المخلصون وكبار العقول والقلوب الشريعة على حقيقتها .

على أن أهم ما نتعلمه من تجربة المسيح : هو عدم الوقوف على كلماته بحروفها ، بل بمضامينها وغاياتها .

من عبيد إلى أمراء

دراسة في صعود المستضعفين في صدر الإسلام

د- محمد مورو

تشكل تجربة صعود المستضعفين في صدر الإسلام ، نموذجاً فذاً لعملية ثورية كبرى وحراك اجتماعي لا نظير له ، منغم برنين صاحب ولكنه عذب رغم أنه يبدو للوهلة الأولى صامتاً ، وربما كان هذا الصمت الملحوظ علامة على عبقرية الممارسة ، التي حولت هذه التجربة الفذة إلى شيء طبيعي حتى لا تكاد تحسه أو تسمعه حتى كان الأمر لا يبدو ملفتاً للنظر من شدة كونه بديهية لا تلفت نظر الرجال الذين مارسوه .

ولا شك أن تجربة الإسلام الثرية في هذا الصدد على مستوى النص والتطبيق يمكن أن تصبح جذراً ثقافياً ومعرفياً لكل ثورة تحريرية ترفع راية المستضعفين في مواجهة مؤسسات الاستكبار .

أى تجربة عظيمة تلك التي ترفع سلمان الفارسي الذي كان عبداً عند أحد يهود المدينة فيصبح أميراً على الكوفة - أهم إمارات الدولة الإسلامية في ذلك الوقت من خلافة عمر بن الخطاب؟!

هذا العبد الذي يتسابق المهاجرون والأنصار بل ورسول الله صلى الله عليه وسلم لينسبه كل إلى نفسه ، ففي يوم الخندق وقف الأنصار يقولون سلمان منا ووقف المهاجرون يقولون بل سلمان منا ، فيسمعهم الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول : « سلمان منا آل البيت » .

والذى يصبح للمسلمين معلماً ومرشداً وحكياً فيقول عنه الرسول صلى الله عليه وسلم : « لقد أشبع سلمان علماً » .

ويلقبه على بن أبى طالب كرم الله وجهه بلقمان الحكيم ، فقد سئل على عنه بعد موته فقال : « ذاك امرؤ منا وإلينا أهل البيت من لكم بمثل لقمان الحكيم » . وهكذا فعلى يفخر بانتساب سلمان إلى أهل البيت النبوى ، بل ويباهى به سائليه .

إنه سلمان الفارسى ، الذى كان ذات يوم عبداً ، فأصبح بالإسلام رجلاً يخرج الخليفة بنفسه لاستقباله فقد جاء سلمان إلى المدينة زائراً فى خلافة عمر بن عبد الخطاب فجمع عمر أصحابه وقال لهم : هيا بنا نخرج لاستقبال سلمان ..

وأى تجربة تصنع من عبد الله بن مسعود ، ذلك العبد الذى يرعى الغنم فى مكة لعقبة بن أبى معيط ، ذلك الرجل الضعيف الجسم النحيف ، القصير القامة ، الفقير الأجير .. تصنع منه هذا الرجل الذى يكون أول من يجرؤ على إسماع قريش بكل وجهائها وزعمائها آيات القرآن علناً وبصوت مرتفع .. فيتفوق بذلك على كل المسلمين الذين أسلموا فى تلك الفترة من حياة الدعوة الإسلامية فى بواكيرها ، والذين كان منهم القوى والشريف والغنى ؟! . هذا الرجل - عبد الله بن مسعود - يصبح يوماً وزيراً فى الكوفة مع أميرها فى ذلك الوقت سلمان الفارسى فى خلافة عمر بن الخطاب .

ويصبح بعد الإسلام من أفقه المسلمين وأكثرهم علماً ، بل وأحسنهم تلاوة للقرآن الكريم ، فيتعلم منه كبار الصحابة كيف يتلون القرآن ، ويتعلمون منه أيضاً فقه الدين ويصبح مرجعاً لهم فى أمور الدين .

يقول عنه الرسول ﷺ : « من أحب أن يقرأ القرآن كما أنزل ، فليقرأه على

قراءة ابن أم عبد « أى عبد الله بن مسعود ، والذى يطيب للرسول صلى الله عليه وسلم أن يستمع الى القرآن من فمه .. وهو الذى عليه أنزل ، ويقول عمر بن الخطاب : « لقد ملئ فقها » . ويقول عنه أبو موسى الأشعري : « لا تسألونا عن شىء مادام هذا الخبر فيكم » .

اجتمع نفر من الصحابة يوماً عند على بن أبى طالب كرم الله وجهه فقالوا له : « يا أمير المؤمنين ، ما رأينا رجلاً كان أحسن خلقاً ولا أرفق تعليماً ولا أحسن مجالسة ، ولا أشد ورعاً من عبد الله بن مسعود » ، فيقول على : « نشدتكم الله أهو صدق من قلوبكم ؟ قالوا : نعم » قال : « اللهم إنى أشهدك ، اللهم إنى أقول فيه مثلاً قالوا وأفضل » « لقد قرأ القرآن فأحل حلاله ، وحرم حرامه ، فقيه في الدين ، عالم بالسنة » .

وهو دون غيره من المسلمين يلقب بصاحب السواد أى موضع سر الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحب نجواه .

ثم هو الذى يقول عنه الرسول صلى الله عليه وسلم : « لو كنت مؤمراً أحداً دون شورى المسلمين ، لأمرت ابن أم عبد » ، بل ويجعله إماماً للهدى لكل الصحابة فيقول عنه : « تمسكوا بعهد ابن أم عبد .. » أى تجربة تلك التى صنعت من هذا العبد كل هذا الذى ذكرناه بل ويعرف الجميع له الفضل ؟! ويعرف أيضاً عن نفسه - بلا عقد أو حساسيات ، فيقول هو عن نفسه : « والله ما نزل من القرآن شىء ، إلا وأنا أعلم فى أى شىء نزل ، وما أحد أعلم بكتاب الله منى ، ولو أعلم أحداً تمتطى إليه إلا بل أعلم منى بكتاب الله لأتيته وما أنا بخيركم » .

من عبد إلى وزير ..

من عبد إلى معلم ومدرسة فى الفقه ومنازة هداية للمسلمين .

من عبد إلى صاحب السواد .

من عبد إلى أعلم الناس بكتاب الله قراءة وتفسيراً وأسباب نزول ، فقيه في الدين عالم بالسنة . من عبد إلى إمام لأجيال بعد أجيال الى أن يرث الله الأرض ومن عليها ..

أى تجربة تلك التى صنعت من سالم مولى أبى حذيفة .. الذى لا يعرف أحد اسم أبيه ولا هو نفسه صنعت منه إماماً للمسلمين المهاجرين من مكة إلى المدينة طوال صلاتهم فى مسجد قباء وفيهم من فيهم من الأشراف والأغنياء .. هذا الذى كان عبداً ذات يوم عند أبى حذيفة فيسليماً معاً ويعتقه أبو حذيفة ثم يزوجه بنت أخيه فاطمة بنت الوليد بن عتبة .

بل ويتحول إلى مصدر فخر للرسول صلى الله عليه وسلم ، وفخر بالتالى لكل مسلم إلى يوم القيامة أن يكون من نفس الأمة التى منها سالم مولى أبى حذيفة الذى لا يعرف أحد اسم أبيه فيقول عنه الرسول صلى الله عليه وسلم : « الحمد لله الذى جعل فى أمتى مثلك » .

هذا الذى كان عبداً يوماً فى مكة ، وكان فيها خالد بن الوليد سيداً ابن سيد هو نفسه الذى يقف أمامه خالد بن الوليد متهماً يسمع قائمة أخطائه من سالم أثناء الخروج معه فى سرية توجهت إلى بعض القبائل العربية بالقرب من مكة بعد الفتح وارتكب خالد فيها بعض الأخطاء ، وكان قائداً لها فإذا بسالم يواجهه بتلك الأخطاء دون خجل أو حساسية .

أى تجربة فريدة تلك التى صنعت من صهيب الرومى ، الذى كان عبداً فى مكة ذات يوم ، هو نفسه الذى يوصى عمر بن الخطاب قبيل موته بعد طعنه بالخنجر على يد أبى لؤلؤة المجوسى ، يوصى بأن يكون صهيب هو من يؤم المسلمين فى الصلاة حتى يتم

اختيار خليفة جديد ، ويظل صهيب يفعل ذلك ثلاثة أيام حتى تم اختيار عثمان بن عفان خليفة للمسلمين . بل ويوصى عمر بأن يكون صهيب مراقباً لأعمال الستة الذين أوكل إليهم أمر اختيار الخليفة من بينهم ، وبينهم أكبر زعماء المسلمين في ذلك الوقت .

وهو الذى ينزل فيه الآية الكريمة ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ فيخلد ذكره إلى الأبد ، وهو الذى يباهى المسلمين بأعماله دون خجل أو حساسية قائلاً : « لم يشهد رسول الله ﷺ مشهداً قط ، إلا كنت حاضره ولم يبايع بيعة قط إلا كنت حاضرها ، ولا غزا غزوة قط أول الزمان أو آخره ، إلا كنت فيها عن يمينه أو شماله ، وما خاف المسلمون - أمامهم قط إلا كنت أمامهم ولا خافوا وراءهم إلا كنت وراءهم ، وما جعلت رسول الله ﷺ بينى وبين العدو أبداً حتى لقي ربه » .

وأى تجربة متميزة تلك التى تجعل بلالاً العبد الحبشى الأسود هو الذى يؤذن للصلاة ، وهو شرف كان يتمناه كل الصحابة الكبار والصغار ، بل وهو من يمسك به الرسول من ناحية ، وبأسامة بن زيد بن حارثة من ناحية أخرى ويدخل بهما الكعبة يوم فتح مكة ، وكأنه ﷺ يريد أن يؤكد تجربة الإسلام العظيمة فى صعود المستضعفين ؛ لأنه يوم النصر الأكبر لا يدخل الكعبة وعن يمينه عمر بن الخطاب أو أبو بكر الصديق ، أو خالد بن الوليد أو عثمان بن عفان أو عبد الرحمن بن عوف أو حتى العباس بن عبد المطلب بل يمسك بلال العبد الحبشى الأسود الذى كان يوماً عبداً عند أمية بن خلف من ناحية ، ومن الناحية الأخرى أسامة بن زيد بن حارثة أى ابن عبد آخر كان ذات يوم عبداً عند السيدة خديجة فوهبته لمحمد فأعتقه .

ولعل وجهاء مكة - وكل أهلها - قد فهموا هذا المعنى نفسه عندما أمر الرسول

ﷺ بلالاً بالصعود فوق أعلى مكان في الكعبة وأن يؤذن ، فوقف ثلاثة من زعمائها هم أبو سفيان بن حرب - وكان قد أسلم منذ ساعات - وعتاب بن أسيد والحارث ابن هشام وكانا لم يسلموا بعد يتحدثون فيقول عتاب بن أسيد وعينه على بلال وهو يرفع الأذان ويعلن انتصار الحق .. لقد أكرم الله أسيدا ألا يكون حضر هذا فيسمع منه ما يغيظه .. وهكذا من عبد في مكة إلى صاحب إعلان نهاية الكفر فيها وشروق فجر جديد .. ويا له من شرف عظيم . بلال بن رباح من عبد في مكة إلى رجل يفخر به كل مسلم بل وأشهر من عُرف بين أجيال المسلمين ، بل وتقوم بأسمه حركات ومؤسسات ، بل ويندر أن تقابل مسلماً عربياً أو أعجمياً ، أفريقى أو آسيوى ، أوروبى أو أمريكى .. ولا يعرف بلالاً .. سواء كان هذا المسلم رجلاً كبيراً أو طفلاً صغيراً ، من الخواص أو من العوام .

هذه التجربة المنقطعة النظير - هى التى تصنع من زيد بن حارثة هذا العبد لدى السيدة خديجة في مكة التى تهديه لزوجها محمد ﷺ فيحرره ويتبناه إلى أن ينزل قرآن ينهى عن عادة التبنى ، هذا العبد ينزل فيه قرآن من فوق سبع سماوات .. ويصبح هو نفسه قائداً لجيش المسلمين بما فيه من كبار الصحابة ووجهاء القوم - في غزوة مؤتة ، ومن قبلها كان هو قائد أكثر من سرية وأميراً للقوات الزاحفة إلى معارك الجموح ، والطرف ، والفيصل ، وحسمى وغيرها .

هذا العبد القصير الأسمر ، أفتس الأنف هو نفسه « الذى لا يرسله الرسول ﷺ في جيش إلا أمره عليه ولو بقى حياً بعد الرسول لاستخلفه » كما تقول السيدة عائشة . من عبد إلى أمير ، بل ولو عاش بعد رسول الله ﷺ لأوصى الرسول ﷺ به ليكون خليفة للمسلمين .

بل وابنه أسامة بن زيد بن حارثة ، التي كانت أمه أيضاً من العبيد « أم أيمن » وهو أيضاً الأسود الأفطس الأنف مثل أبيه ، هو وبلال من يدخلان بصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة يوم الفتح .

وهو الذى يجعله الرسول ﷺ أميراً لجيش أسامة أى لذلك الجيش الذى حمل اسمه حتى اليوم ، هذا الجيش الذى كان فيه عمر وأبو بكر وغيرهما من كبار الصحابة جنوداً تحت إمرة القائد أسامة بن زيد الذى لم يكن قد تجاوز العشرين من عمره فى ذلك الوقت .

هذه التجربة التى لا تستطيع الكلمات وصفها بما تستحق ، هى من تجعل من خباب بن الأرت عبد أم أنمار ، ذلك الحداد الذى كان يصنع السيوف فى مكة هو من يعلم إخوانه المسلمين الأوائل آيات القرآن ، وهو الذى كان يعلم فاطمة بن الخطاب وزوجها سعيد بن زيد القرآن عندما داهمهم عمر بن الخطاب فى القصة المعروفة لإسلام عمر .

ومن خلف تلك الممارسة الفذة .. كان النص قرآناً وسنة يؤكد هذه التجربة بل يصفها بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ليس لعربى فضل على أعجمى إلا بالتقوى » . ويقول « ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى » ويقول : « كلكم لآدم وآدم من تراب » . ومن خلف النص والممارسة كان المنهج الإسلامى بشموله وروعته مهيماً .



التكتيك النبوى فى مواجهة اليهود

د- محمد مورو

لاشك أن دراسة سياسات الرسول ﷺ تجاه اليهود فى الجزيرة العربية فى المرحلة المدنية بالتحديد تكشف الكثير من المعطيات الضرورية لفهم مبادئ الإسلام العليا من ناحية ، وتكشف أيضاً عن جوانب من الأسلوب الصحيح لمواجهة اليهود عموماً ، وهو أمر لازم لنا فى إطار الصراع مع العدو الصهيونى الذى يمثل أكبر التحديات فى تاريخنا المعاصر .

ولكى نتف على طبيعة التكتيك النبوى تجاه اليهود فى تلك الحقبة ينبغى بالطبع أن نعرف شيئاً عن طبيعة الوجود اليهودى فى الجزيرة العربية فى ذلك الوقت .

تركز الوجود اليهودى فى الجزيرة العربية فى المدينة وشمالها من ناحية وفى بعض مناطق اليمن جنوباً من ناحية أخرى ، ويهمن بالطبع هنا فى إطار دراسة التكتيك النبوى فى مواجهة اليهود ، التركيز على تلك التجمعات اليهودية فى المدينة وشمالها ، وكان هؤلاء يتكونون من ثلاثة قوى وتجمعات يهودية داخل المدينة هى بنو قينقاع وبنو قريظة وبنو النضير ، وخارج المدينة فى خيبر وفدك وتيهاً وغيرها على امتداد ٤٢ كيلو متر شمال المدينة حتى تخوم الجزيرة العربية الشمالية ، وذكر السهمودى فى وفاء الوفا ص ١١٦ أن عدد القبائل اليهودية فى تلك المناطق يزيد على عشرين .

وقد جاء هؤلاء اليهود مهاجرين إلى الجزيرة العربية نتيجة الضغط البابلى والآشورى عليهم فى فلسطين وتخريب هيكلهم وسبى أكثرهم على يد الملك بختنصر سنة ٥٨٧ ق.م فهاجر قسم منهم إلى الحجاز وتوطن فى ربوعها الشمالية ،

وكذلك عقب احتلال الرومان لفلسطين سنة ٧٠ ق.م ونشأ عن اضطهاد الرومان لليهود أن هاجر عدد منهم إلى الحجاز واستقر في يثرب وخيبر وتيماء كما دخل بعض العرب عن طريق هؤلاء اليهود في اليهودية ، إلا أن ذلك ظل أمراً محدوداً بالطبع ، ومن ناحية أخرى فإن تلك التجمعات اليهودية في يثرب وخارجها ظلت متمسكة بعصبتها الجنسية والدينية رغم أنهم أخذوا الصبغة العربية في اللغة والزي والأسماء وكانوا دائماً يفتخرون بجنسيتهم الإسرائيلية ولم يندمجوا في العرب قط ، بل كانوا يحتقرونهم ويسمونهم أميين كعادة اليهود في النظر إلى غيرهم من الأجناس ، وكانوا يرون أن أموال العرب مباحة لهم يأكلونها كيف شاؤوا ﴿قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَكِيلٌ﴾ ولم يكن لهم تحمس في نشر دينهم وإنما جل بضاعتهم هى الفأل والسحر والنفث والرؤية وغيرها « المباركفوري - الرحيق المختوم ص ٢١١ .

وسيطر اليهود على أعمال التجارة عموماً وتجارة الخمر والسلاح خصوصاً ، وكانوا بالطبع يمارسون الربا على نطاق واسع وأثاروا دائماً العدوان والبغضاء بين القبائل العربية ليحققوا مكاسبهم المعروفة من الحروب التى تقع بين القبائل العربية فتروج تجارة السلاح وتروج أعمال الربا واستطاع اليهود بهذه الوسائل أن يحققوا ثراء واسعاً ونفوذاً داخل تلك البلاد .

كان من الطبيعي أن يعرف اليهود أن النبى محمداً ﷺ نبى صادق ، وأنه جاء بالحق وذلك بحكم معرفتهم بالكتب والبشريات التى بشرت بالرسول صلى الله عليه وسلم وبعلاماته الصادقة ، ولكنهم رفضوا بالطبع الانصياع إلى الحق ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ، وقد كان رفضهم الإيمان بمحمد يرجع إلى تكبرهم على الحق من ناحية ، وإلى خوفهم من ضياع نفوذهم

وثرائهم بسبب ما توقعوه من تغيير الخريطة الثقافية والاقتصادية والسياسية إذا انتصر الإسلام ، وهكذا أضمر اليهود الحقد والمؤامرات على الإسلام وعلى محمد ﷺ واستعداداً لحرب شرسة ضده ، ومع ذلك عاملهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالتسامح وفقاً لقيم ومبادئ الإسلام العليا في أول عهده بالمدينة ، ولم يبدأ الحرب عليهم إلا بعد أن قاموا بمؤامرات مادية ومعنوية ضد الكيان الإسلامى الوليد في المدينة المنورة .

دستور المدينة :

بمجرد أن استقر الرسول ﷺ بالمدينة ، وأقام فيها المجتمع الإسلامى الوليد ، قام الرسول صلى الله عليه وسلم بعقد ميثاق وعهد ووثيقة مكتوبة تنظم العلاقات بين مختلف القوى والطوائف والتجمعات والأفراد داخل هذا المجتمع ، وكان من الطبيعى - بفضل ساحة الإسلام وبفضل حرص الإسلام على حماية حقوق الأقليات الدينية والعرقية - أن يسمح الرسول ﷺ لليهود في المدينة بالدخول في هذا العقد ، الذى يمثل أرقى ما عرفت البشرية من عقود لحماية حقوق الأقليات الأمر الذى يعكس قيم الإسلام العليا - راجع نص وثيقة المدينة في سيرة ابن هشام ، وفي الرحيق المختوم للمباركفورى ، وكذلك في الدراسة الهامة التى كتبها الدكتور كمال السعيد حبيب في مجلة منبر الشرق ، العدد (١) السنة الأولى مارس ١٩٩٢ ، ص ١١٥ تحت عنوان قراءة جديدة في وثيقة المدينة وهى قراءة شديدة التميز والأهمية ، وكذا في الأعمال الكاملة للمفكر عصمت سيف الدولة .

وعلىنا أن ندرك أن مجتمع المدينة في ذلك الوقت كان يمثل كياناً سياسياً متميزاً ، يمثل الرسول ﷺ فيه القائد الأعلى ، ويمثل المسلمون من المهاجرين والأنصار

الأغلبية مع وجود أقليات من المشركين ومن اليهود كأفراد أو كجماعات .

كانت الوثيقة تنص على وجود حقوق لليهود - مثل المسلمين ، وكانت ترتب علاقات وواجبات ، وتسمح لليهود بالمشاركة في المعارك التي يخوضها المسلمون - دون إلزامهم بذلك - فإذا شاركوا بأنفسهم أو أموالهم في الحروب مع المسلمين حصلوا على نصيبهم في الغنائم ، وبديهي أن الوثيقة نصت على وجوب عدم تعاون أهل الوثيقة مع القوى المعادية - قريش مثلاً - وعدم خيانة أهل المدينة أو إفشاء أسرار المجتمع أو مساعدة الأعداء على انتهاك الأمن الداخلي لهذا المجتمع ، واحترام حقوق الدماء والأموال وغيرها ، وأن أى نقض لذلك يترتب عليه خرق الوثيقة بما يترتب على ذلك من آثار .

دخل اليهود في وثيقة المدينة إذن ، وكان عليهم الالتزام بها بالطبع والذين دخلوا في تلك الوثيقة من اليهود هم يهود المدينة وما حولها مثل بنى قريظة وكانوا يعيشون في ضاحية يثرب من جهة الجنوب الشرقى ، وبنى النضير وكانوا يعيشون في ضاحية يثرب جهة الغرب ، وبنى قينقاع وكانوا يقيمون داخل المدينة ذاتها مع قبائل بنى عوف وبنى النجار كان بنو قينقاع حلفاء للخزرج ، أما بنو النضير وبنو قريظة فكانوا حلفاء للأوس .

أما اليهود خارج المدينة مثل خيبر التي تقع على بعد ٨٠ ميلاً شمال المدينة وهى من أقوى الحصون والمواقع اليهودية في الجزيرة العربية في ذلك الوقت ، وكذلك يهود فدك وتيماء وكل هؤلاء لم يكونوا أطرافاً في الحلف والميثاق المدون بوثيقة المدينة .

ولا شك أن تعامل الرسول ﷺ وسياساته تجاه اليهود تمثل العدل المطلق ،

وتعكس قيم الإسلام العليا ، فقد حرص على التعايش بين المسلمين واليهود وغيرهم بدون ظلم لأحد ، وهذه التجربة في التعايش تمثل نموذجاً فذاً للتعايش بين الأكرثية والأقلية في أى زمان ومكان ، وكذلك في حرص الرسول ﷺ على كتابة نص يمثل الحقوق المتبادلة في وثيقة مكتوبة وهو أمر يمثل سابقة هامة على مستوى السوابق الدستورية .

ولكن اليهود نقضوا العهد ، فكان من الطبيعي أن تتغير سياسة الرسول ﷺ تجاههم ، فيسقط المعاهدة مع المتعاهدين منهم ويتصرف مع الباقين على مستوى كل حدث . كان اليهود قد تحركوا على أكثر من مستوى للكيد للدعوة الإسلامية الوليدة وكذا لشن حملة دعائية وإعلامية ضد الدين الإسلامي الخفيف ، وضد الرسول ﷺ ، والتربص بنساء المؤمنين ، وإنفاق الأموال لدفع القبائل العربية لشن الحروب على دولة الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة وتحريض قريش وغيرها وتمويل الحرب ضد المسلمين وكذا تخطيط أكثر من مؤامرة لاغتيال الرسول ﷺ ويمكننا أن نقسم سياسة المواجهة ضد اليهود التي خاضها الرسول ﷺ إلى قسمين ، قسم خاص بتنفيذ عدد من عمليات الاغتيال لمجرمى الحرب اليهود وزعماء المؤامرات ، والقسم الثانى خاص بالحروب والغزوات ضد تجمعات اليهود .

أما القسم الأول الخاص باغتيال زعماء المؤامرات ومجرمى الحرب اليهود مثل اغتيال كعب بن الأشرف ، وابن سينة ، وسلام بن أبى الحقيق المعروف بأبى رافع اليهودى ، وهؤلاء كانوا من ممولى الحروب ضد دولة الرسول بالمدينة ، وكذلك قاموا بجهد كبير في تحريض القبائل العربية على قتال المسلمين في المدينة ، والتعريض بأعراض المسلمات في المدينة عن طريق الشعر ، وكذلك الحرب الإعلامية والدعائية ضد المسلمين ، والمحاولات الخطيرة لشق المجتمع الإسلامى

في المدينة وإحداث حرب أهلية داخلها عن طريق بث الأفكار والإشاعات والمواقف مستخدمين في ذلك المنافقين. وهكذا فإن عمليات الاغتيال تلك كانت عقوبة على عمل مادي قام به هؤلاء ، وكذلك عملية إجهاضية لمؤامرات تم نسجها وبث الرعب في نفوس باقى أطراف تلك المؤامرات .

أما القسم الثانى : وهو الغزو ضد التجمعات اليهودية ، فحدث أولاً مع بنى قينقاع ، فبرغم أن بنى قينقاع كانت داخلية في وثيقة المدينة ، وبرغم احترام المسلمين لهذه الوثيقة تماماً ، إلا أن بنى قينقاع بدأوا خاصة بعد انتصار المسلمين في بدر في التحرش بالمسلمين واستفزازهم والتهديد بدخول معركة معهم يهزمون فيها المسلمين لأنهم على حد قولهم أقوى من قريش وأشجع ولن يهزموا مثل قريش الذين لا يعرفون فن الحرب على حد قول بنى قينقاع ، وكذلك إيذاء المسلمين والتحرش بالنساء المسلمات ، ووصل الأمر إلى حد محاولة إحداث حرب أهلية بين الأوس والخزرج ، وهذا بالطبع أمر خطير جداً - يستحق أقصى العقوبة ، ذلك أن أحدهم وهو شاس بن قيس وكان شيخاً يهودياً شديد المكر أمر أحد الفتيان اليهود ، بالذهاب الى مجالس الأوس والخزرج حيث يجتمع شبابهم عادة ، ثم تذكيرهم بأيام الحروب والعداوات بينهم وتحريضهم على قتال بعضهم البعض ، وقد نفذ الفتى اليهودى ذلك الأمر ، وكادت تحدث معركة بين الأوس والخزرج ، فقد تشاجر بعض الأوس مع بعض الخزرج ، ثم تواعدوا على الحرب ، وتنادوا إلى السلاح ، ولولا أن الرسول ﷺ قد أدرك الموقف سريعاً وذهب إليهم وقال لهم : « يا معشر المسلمين الله الله ! أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر وألف بين قلوبكم؟! » فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان ، وكيد من عدوهم ، فبكوا وعانقوا

الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين قد أطفأ الله عنهم كيد عدوهم وعدو الله شاس بن قيس ذلك اليهودي الملعون «المباركفوري - الرحيق المختوم - ص ٢٧٧، ٢٧٨» .

وكان الرسول ﷺ ، كلما فعل اليهود شيئاً من ذلك دعاهم ووعظهم وطلب منهم احترام الميثاق بين الطرفين دون جدوى .

وكان لابد أن يفكر الرسول صلى الله عليه وسلم في حماية الأمن الاجتماعى للدولة الذى تهدده مؤامرات اليهود وإشاعاتهم وأقوالهم وأراجيفهم .

وحدث أن اعتدى اليهود على إحدى النساء المؤمنات التي كانت تشتري بعض الأشياء من السوق، وجلست إلى أحد الصاغة اليهود، فأرادوا كشف وجهها فأبت المرأة ذلك ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها وهى غافلة ، فلما قامت اتكشفت سواتها ، فضحكوا منها ، فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ اليهودى فقتله ، فشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع . (سيرة بن هشام ٢ / ٤٧ ، ٤٨) .

وكانت هذه الحادثة سبباً مباشراً فى نقض العهد والوثيقة بين المسلمين واليهود ، وقرر الرسول ﷺ أن يغزو بنى قينقاع بعد ذلك ، فسار إليهم الرسول ﷺ بجيشه فى شوال سنة ٢ هـ ، فتحصنوا فى حصونهم ، وحاصرهم الرسول ﷺ خمسة عشر يوماً وانتهى الأمر بتسليمهم ، فعفا الرسول ﷺ عنهم وأمر بخروجهم من المدينة فخرجوا منها ، ويجب أن نلاحظ هنا عددًا من الملاحظات :

- أن يهود بنى قينقاع هم الذين نقضوا العهد بما فعلوه مع المرأة المسلمة فى السوق ، وأن هذا لم يكن أول شكل من أشكال النقض ولكنه أكثرها مباشرة ووضوحاً ، وأنهم قبل ذلك قاموا بالكثير من الأمور الناقضة لذلك العهد مثل

الإيقاع بين الأوس والخزرج ، أو أذية المسلمين أو التهديد بحرب المسلمين ، والتهديد بحرب المسلمين له قصة معروفة في السيرة ونزل بها القرآن الكريم ، ذلك أنهم قالوا بعد انتصار المسلمين في بدر : « يا محمد لا يغرنك أنك قتلت نفرأ من قريش ، كانوا أغمارا لا يعرفون القتال ، إنك لو قاتلتنا لعرفت أننا نحن الناس ، وأنك لم تلق مثلنا » .. وكان هذا بالطبع تهديداً واضحاً بالحرب ضد المسلمين ، وكان بنو قينقاع مغترين بقوتهم فقد كان لديهم ٧٠٠ مقاتل وكانوا معروفين بالمهارة في فن القتال .

- أن الرسول ﷺ كان يسير معهم بمقتضى العدل ، بل بالرحمة أيضاً فقد أحترم الميثاق معهم تماماً ، وصبر على ممارساتهم المخالفة للميثاق عدة مرات ، ولكن عندما وصل الأمر الى تهديد الأمن الداخلى لمجتمع المدينة فإنه باعباره قائداً عاماً لهذه الدولة كان عليه أن يجhez المؤامرات وأن يقضى على بؤرة الفتنة داخل المدينة فكان غزوهم ثم إجلاءهم ، ونلاحظ أن الرسول لم يأمر بقتلهم رغم أنهم تحصنوا بحصونهم عند الغزو أى بدأوا في معركة ولم يصمدوا حتى النهاية فاستسلموا بعد حصار خمسة عشر يوماً ، وكان من حق الرسول أن يأخذهم أسرى على الأقل ، ولكنه عفا عنهم وسمح لهم بالجلء عن المدينة ، فحقق بذلك الأمن الاجتماعى داخل المدينة ، وعاقب اليهود عقاباً طفيفاً على مؤامراتهم من ناحية أخرى .

- إن الرسول ﷺ كان يسمح ويريد تعايش المسلمين مع اليهود في المدينة بدون مشاكل وفقاً لقيم العدل الإسلامى بل وقيمة العدل المطلق بدليل أنه عندما نقضت بنو قينقاع الميثاق ، عاقبهم وحدهم دون باقى جماعات اليهود في المدينة مثل بنى النضير وبنى قريظة واستمر محترماً للميثاق معهم حتى نقضوه هم أنفسهم .

- أن التسوية لم تكن قاسية ولكنها حققت الهدف أيضاً ؛ لأن المطلوب كان حماية الجبهة الداخلية لمجتمع المدينة وهذا تحقق بجلء يهود بنى قينقاع .

أما يهود بنى النضير ، فإنهم أيضاً هم الذين نقضوا الميثاق ، ومثل باقى اليهود كانوا يضمرون الحقد على الإسلام ، ويجرضون القبائل على حرب الرسول ويمولون ذلك ، ويقومون بدورهم فى الحرب الإعلامية ضد المسلمين ، ولكن وتيرة التآمر عندهم زادت بصورة كبيرة بعد غزوة أحد التى انهزم فيها المسلمون أمام قريش فقد تجرأ يهود بنى النضير بعد هزيمة المسلمين فى أحد فكاشفوا بالعداوة والبغضاء وأخذوا يتصلون بالمشركين والمنافقين ثم دبروا فى النهاية مؤامرة لقتل الرسول ﷺ عن طريق إلقاء رعى عليه عندما جلس عندهم للتفاوض حول مساهمتهم فى دية بعض القتلى من الكلابيين الذين قتلهم عمرو بن أمية الضمري وفقاً لشروط الوثيقة .

فلما انكشفت المؤامرة ، التى شاركوا فيها جميعاً ، بالتخطيط أو التنفيذ أو الموافقة ، ذلك أن محاولة القتل تلك لم تكن عملاً فردياً ، بل قراراً اتخذه زعمائهم ووافقوا عليه جميعاً ، ثم تم تكليف بعضهم بتنفيذه ، إلا أن الله تعالى أخبر به الرسول ، فقام قبل تنفيذ المؤامرة ونجا من المحاولة ، ثم قرر الرسول ﷺ أن يطلب منهم الرحيل عن المدينة جزاء ما فعلوا ، وأمهلهم عشرة أيام إلا أنهم رفضوا ذلك ، وكان هذا إعلاناً للحرب بالطبع ، فمن ناحية فإنهم لم ينكروا مؤامراتهم لقتل الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكن اعترفوا بها وصمموا على رفض طلب خروجهم من المدينة ، فكانت الحرب لا بد واقعة ، فسار إليهم الرسول ﷺ بجيشه ، وحاصرهم ستة أيام إلى أن استسلموا ، فسمح لهم الرسول بالخروج من المدينة ولهم أن يحملوا معهم ما شاءوا من الأموال والأمتعة ما عدا السلاح ، وكانت هذه عقوبة رحيمة أيضاً بالنظر إلى ما فعلوا وبالنظر إلى رفضهم قبول طلب الرسول إليهم بالرحيل فى خلال عشرة أيام وتمسكهم بالحرب وتحصنهم داخل الحصون ثم استسلامهم بعد حصار دام ستة أيام .

وأيضاً لم يؤثر نقض كل من بنى قينقاع وبنى النضير للميثاق مع الرسول ﷺ على موقف الجماعة اليهودية الوحيدة الباقية في المدينة وهى بنى قريظة التى ظل المسلمون يحترمون الميثاق معها إلى أن نقضها بنو قريظة نقضاً فظيعاً أقل ما يقال فيه أنه الخيانة العظمى ذلك أن اليهود عموماً فى داخل المدينة وخارجها ، ومن بنى قريظة نفسها قاموا بالعمل على حشد عدد كبير من القبائل العربية فيما يسمى بغزوة الأحزاب وقاموا بتمويل تلك الحشود ، ليس هذا فحسب بل إن بنى قريظة اتفقت مع الأحزاب على دخول المدينة عن طريق بنى قريظة إلا أن تلك الخطة فشلت ، وعندما أرسل الرسول إليهم لكى يعرف حقيقة نواياهم - والمدينة محاصرة بجيوش الأحزاب - قالوا لوفد المسلمين إليهم وكان يتكون من سعد بن عباد ، وسعد بن معاذ وعبد الله بن رواحه ، قالوا لهم أنه لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد وأخذوا يسبون الرسول صلى الله عليه وسلم ويتوعدون المسلمين وكذلك قامت بنو قريظة بأعمال الحرب المباشرة ، بمحاولة دخول أحد الحصون التى كانت نساء المسلمين تجتمعن بها بعد خروج الرجال إلى المواجهة مع الأحزاب ويسمى حصن فارع أى محاولة ضرب المسلمين فى نسائهم من الخلف ، ولولا شجاعة صفية بنت عبد المطلب التى قتلت أحد اليهود الذى حاول تسلق الحصن ، فرجع الآخرون بعد أن ظنوا أن هناك حراسة قوية على الحصن لحدثت كارثة .

المهم أن الله أراد النصر للمسلمين وأرسل ريحاً على الأحزاب فاضطروا للجلأ والرجوع إلى بلادهم ، وكان من الطبيعى أن ينال يهود بنى قريظة العقوبة الملائمة على الجرائم التى ارتكبوها فى ذلك الوقت العصيب فى حق المسلمين رغم وجود الميثاق بينهما وهذه الجرائم تمثل أبشع أنواع الخيانة العظمى .

فهى أولاً التعاون مع العدو أثناء حالة الحرب وثانياً ضرب مؤخرة المسلمين بل

ومحاولة الاعتداء على النساء ، الاعتراف جهراً بنقض العهد وسب الرسول ﷺ ،
الاتفاق مع الأحزاب على دخول المدينة من طريق بنى قريظة .

وهكذا كان من الطبيعي أن يعتمد الرسول ﷺ إلى غزوهم بمجرد جلاء قوات
الأحزاب ، وفي نفس اليوم الذى رجع فيه الرسول إلى المدينة أمر بعدم الراحة
والزحف فوراً إلى بنى قريظة وقال : « من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا فى
بنى قريظة » وسار الجيش إلى بنى قريظة ، وحاصرهم فى حصونهم إلى أن استسلموا
وكانت بنو قريظة من حلفاء الأوس ، فتم الاتفاق على أن يحكم فيهم سيد الأوس
سعد بن معاذ ، وكان مريضاً فى ذلك الوقت ، فجيء به إلى المكان فقام بالحكم
عليهم حكماً مناسباً يتلاءم مع جرائمهم ، رغم أنه كان حليفاً لهم من قبل ولا يعقل
أن يظلمهم أو يقسوا عليهم - ولكن مقتضى العدل وحجم جرائمهم لم تكن تسمح
إلا بهذا الحكم الذى حكمه عليهم سعد بن معاذ حيث حكم بقتل الرجال وسبى
النساء وتقسيم الأموال .

وهكذا كانت تلك هى ممارسات الرسول صلى الله عليه وسلم مع يهود يثرب
فهو أولاً أراد التعايش معهم وإعطاء كل حقوق المواطنة لهم فى إطار دولة المدينة ،
لدرجة السماح لهم بالقتال معه ضد أعدائها مع إعطائهم حقهم فى الغنائم بناء على
ذلك كمواطنين فى دولة المدينة ، أفراداً وجماعات إلا أنهم رفضوا التعايش ، وخانوا
الميثاق والعهد المكتوب فاستحقوا العقوبة على جرائمهم ، ونلاحظ أن العقوبات
دائماً كانت إما متكافئة مع جرائمهم أو أقل من تلك الجرائم مما يؤكد روح العدل
والرحمة التى عاملهم بها الرسول ﷺ .

بقى بعد ذلك تجمعات يهودية خارج المدينة ، وهذه لم تكن داخلة بالطبع في عهد وميثاق من أهل المدينة ، وبالتالي يخضعون لنفس المعايير التي خضعت لها معادلات الصراع بين المسلمين وبين مختلف القبائل العربية في الجزيرة العربية ، كان هناك خيبر وتيماء وفدك ووادي القرى ، وتقع خيبر على بعد ٨٠ ميلاً شمال المدينة ، وكانت خيبر أهم وأغنى تجمعات اليهود في الجزيرة العربية وأكثرها قوة ، كانت خيبر تدير منذ بدايات الدعوة الإسلامية الكثير من المؤامرات على الإسلام بالتنسيق والتعاون مع باقى يهود الجزيرة العربية ، كانت خيبر هى وكر الدس والتآمر فهى التى قامت بالدور الأكبر فى تحريض القبائل وتمويل زحفها على المدينة فى غزو الأحزاب ، وكانت تتصل بالمنافقين فى المدينة وكانت قد أصبحت ملجأ لكل زعماء اليهود وجماعاتهم المتآمرة بعد ضياع كيانهم فى المدينة ، وكانت خيبر قد أعدت خطة لاغتيال الرسول ﷺ ، وكذلك كانت تستعد للزحف إلى المدينة مع عدد من الجيوش والقبائل للقضاء على المسلمين فيها بعد أن نجح المسلمون فى القضاء على الكثير من القوى المعادية لهم ، أى أنها كانت المحطة الأخيرة لتجميع كل فلول الشرك فى الجزيرة العربية وعمل المؤامرة الكبرى على الإسلام ، وكان من الطبيعى وفقاً للتكتيك النبوى من إجهاض تلك البؤرة ، وما أن فرغ المسلمون من تهدئة جبهة قريش بصلح الحديبية توجه مع جيشه سنة ٧ هـ إلى خيبر لغزوها ، وقد نجح المسلمون فى فتح خيبر بعد قتال صعب ومرير ، وقد تركهم الرسول بعد ذلك يعملون فى الأرض مقابل جزء من الثمار ، وهذا من رحمة النبى - إلا أنه صادر أموالهم وسلاحهم حتى لا يصبحون من جديد قادرين على حشد الجيوش أو تمويل الحروب ضد دولة المسلمين .

وحدث نفس الشيء مع يهود وادي القرى ، وصالح يهود فدك على نفس ما

صالح عليه أهل خير ، أما يهود تيماء فقد أرسلو من أنفسهم يطلبون الصلح فكتب لهم الرسول بذلك ما معناه «هذا كتاب محمد رسول الله ، إن لهم الذمة وعليهم الجزية ، ولا عداد ولا جلاء الليل مد والنهار شد » طبقات ابن سعد .

وهكذا كان التكتيك النبوي تجاه اليهود هو العدل والرغبة في التعايش أولاً ، فإذا ما نقضوا العهد كانت هناك عمليات الإجهاض والحرب الهجومية والوقائية وعدم تركهم حتى تكتمل مؤامراتهم ، والمحافظة على أمن الدولة الإسلامية الوليدة ، وامتلاك زمام المبادرة دائماً .

